



الحياة للولي

صياغة شريفة

العالم الجليل

السبح محمد الغزالي

طيب الله ثراه

حققه وكتب مقدمته د. مصطفى الشكعة

دار الشروق

الحياة للروحي

ريزلا شير

العالم الجليل

السبح محمد الغزالي

طيب الله شراه

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الديوان

للأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

الحمد لله حمدا كثيرا يليق بجلال ذاته، ويرتقى إلى كمال صفاته ويشيد بعظيم مننه ولطفه ونعمائه وآياته، وصلاة الله وسلامه وبركاته على خير خلقه وخاتم رسله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه صلاة دائمة سابعة البركات معطرة النفحات، وبعد .

فإن أخانا وشيخنا محمد الغزالي واحد من كبار علماء أمة الإسلام المعاصرين، له من الفضل ما لم يتوفر إلا للقليلين من أترابه، فهو العالم الفقيه الأصولي المحدث الأديب الخطيب ، وقد وهبه الله من نعمة الدعوة إليه - جل وعلا - على بصيرة ، القدرة التي لم تتوافر إلا للقليلين من دعاة زمانه، وقد طار صيته إلى كل ركن من أركان المعمورة ضمت ولو قلة من المسلمين وآحادا من المؤمنين ، بل ربما لم يشاركه في هذه الشهرة إلا واحد أو اثنان مثل مولانا الشيخ محمد متولى الشعراوى والشيخ على الطنطاوى .

لقد عرف الناس عن الشيخ الغزالي تلك المواهب المعرفية الإسلامية التي أسلفنا ذكرها، وأما الذى لا تعرفه جمهرتهم، بل مجموعهم هو أنه كان شاعرا، ذا موهبة خصبة ، وقريحة معطاءة ، وقلم مطواع ، وبيان سائغ .

إن الشيخ الغزالي الشاعر كان متمثلا فى حياته حكمة الإمام الشافعى فى بيته المشهور :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنتُ اليوم أشعر من لبيد

شعر الأئمة :

والإمام الشافعى كان شديد التواضع فى قوله هذا البيت ، ربما لم تكن شهرة الإمام الشافعى - على زمانه - فى عالم الشعر كشهرة لبيد ، ولكنه بموازين زماننا ، وحين وصلت إلى أيدينا نماذج كثيرة من شعره ، وجدناه فاق لبيدا شهرة - على الرغم من فضل لبيد وقدراته الشعرية - ذلك أن لبيدا طرق فنون الشعر الجاهلية ثم أقلع عن ذلك حينما من الله عليه بنعمة الإسلام وشرف صحابته لنبي الهدى ورسول الرحمة محمد ﷺ ، فلم يقل بعد إسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى كسانى من الإسلام سربالا

وفى رواية أخرى أن البيت الوحيد الذى قاله لبيد فى حياته بعد إسلامه هو :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح

وأياً ما كان الأمر فإن الإمام الشافعى - على تواضعه فى بيته سالف الذكر - ليس أقل شهرة فى ميدان الشعر من لبيد ، هذا فضلا عن إمامته فى الفقه والعلوم الإسلامية ، وعبقريته فى الأنساب ، ونبوغه فى علوم اللغة .

فإذا كان الأمر متعلقا بالشيخ الغزالى ، فإن بيت الإمام الشافعى ينطبق عليه ، فقد قال الغزالى الشعر فى فجر صباه ، وعلى وجه التحديد فى الثامنة عشرة من عمره :

ثمانى عشرة مرت سهادا أردت على المنام .. ولن أرادا

فكانت يقظة المضنى بنائى كرى النوام أن يغفو اتئادا

وكانت فى سبيل المجد تسعى تغالبه ولا تألو اطرادا

هكذا قال الغزالى الشعر مبكرا ، ولم يلبث أن أقلع عن قوله مبكرا أيضا ، والرجل فى حاله - قول الشعر والإقلاع عنه - يمثل مفاجأة لكثير من أصدقائه ومحبيه ، ذلك أن هذه الكثرة من مريديه لم يعرفوا خبر شاعرية الشيخ وشعره إلا حين جرى الإعلان عن تحقيق هذا الديوان وطبعه ونشره .

غير أن الأمر عندنا يختلف عنه عند الآخرين ، فلماذا لا يكون الغزالى الإمام الداعية إلى الله الفقيه المحدث شاعرا ، لقد سبقه فقهاء أعلام كثيرون فى قول الشعر

الجاد، بل سبقه عدد من أئمة المسلمين فى قول الشعر، منهم من التزم جادة الشعر الإسلامى فى موضوعاته الفاضلة فى محيط العلم والفضل ومكارم الأخلاق، ومنهم من تجاوز هذه الأغراض إلى المدح والثناء والهجاء، بل منهم من عمد إلى الغزل الرقيق العميق الذى جرى ويجرى بعضه على السنة الأسلاف وبعض المعاصرين وهم لا يدرون أن هذا الضرب من القول صادر عن أئمة أبرار وعلماء أخيار.

إن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه قد أسهم فى الشعر قولاً وإنشاء وترديداً، ولكنه حين يشدو بشعره يقف به عند فضيلة القناعة والزهد وأدب السلوك ومكارم الأخلاق، فمن شعره - رضى الله عنه - فى القناعة والزهد قوله :

هى القناعة لا أرضى بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل فاز منها بغير اللحد والكفن

ويقول الإمام مالك فى أدب السلوك وحسن المعاشرة أبياتاً جميلة تسرى الحكمة فى حناياها مما جعل بعضها يجرى مجرى المثل السائر :

إذا رفع الزمان عليك شخصاً وكنت أحق منه ولو تصاعد
أنله حق رتبته تجده ينيلك إن دنوت وإن تباعد
ولا تقل الذى تدريه فيه تكن رجلاً عن السوأى تقاعد
فكم فى العرس أبهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

وأخبار الإمام مالك فى سماع الشعر والغناء غير قليلة، منها ما رواه القاضى عياض من أن الإمام مالكا مرّ بمغنية تغنى وتقول :

أنت أختى أنت حرمة جارى وحقيق على حفظ الجوار
أنا للجار ما تغيب عنى حافظ للمغيب فى الأسرار
ما أبالى أكان للباب ستر مسبل أم بقى بغير ستار

فأعجب الإمام بالشعر والغناء معا وقال : لو غنى بها حول الكعبة لجاز وقال : يأهل الدار، علموا قينتكم مثل هذا.

ومن الأئمة الشعراء عبد الله بن المبارك، وهو تلميذ كبار أئمة زمانه، إنه تلميذ
أبي حنيفة والمدافع عنه، وتلميذ مالك، وتلميذ الأوزاعي وتلميذ سفيان الثوري .

إن شعر الإمام ابن المبارك من الطراز النفيس الملتزم، الداعى إلى التزام عرى الدين
والاستمسك بالفضائل، ويحمل فى طياته منهج ناقد وحذق داعية وذلك فى
قوله :

رأيتُ الذنوب قمتُ القلوب	ويورثك الذلُّ إدمانها
وتركُ الذنوب حياة القلوب	وخيرُ لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك	وأحبار سوء ورهبانها
وباعُوا النفوس فلم يربحوا	ولم تغلُ فى البيع أثمانها
لقد رتع القومُ فى جيفةٍ	يبينُ لذى اللب إنتانها

وكان الإمام ابن المبارك ذا مال يكفيه، ويسار يغنيه، ولكنه كان يحب أن يصل
العلماء والزهاد بما يعينهم على تكاليف الحياة، ومن ثم احترف التجارة حتى وهو
مرابط فى الثغور، وكان يقول فى أسباب احترافه التجارة : لولا خمسة ما تجرت :
السفيانان - يعنى الثورى وابن عيينة - وفضيل بن عياض وابن السماك وابن عُلَيَّة،
يقصد بقوله أنه أقدم على التجارة ليكون لديه من المال الوفير ما يمكنه من
صلتهم .

فلما ولى الخليفة هارون الرشيد، إسماعيل ابن عليّة القضاء غضب عليه ابن
المبارك ولم يعره التفاتا إذا لقيه ثم أنشأ هذه الأبيات معرّضا بالعالم الجليل إسماعيل
ابن عُلَيَّة :

يا جاعل العلم له بازيا	يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا وزينتها	بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعد ما	كنت دواء للمجانين
أين روايتك فى سردها	بتترك أبواب السلاطين
أين روايتك فيما مضى	عن ابن عوف وابن سيرين
إن قلت : أكرهتُ، فذا باطل	زل حمار الشيخ فى الطين

وما أن اطلع ابن عليّ على الأبيات حتى انطلق إلى باب هارون الرشيد طالبا إليه
أن يعفيه من منصب القضاء . وما زال يلح في ذلك عليه حتى استجاب له الخليفة
وأعفاه .

ومن الأئمة الشعراء ذوى الشهرة الواسعة فى هذا المجال ، الإمام محمد بن إدريس
الشافعى الذى أسلفنا ترديد بيته الشهير :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنتُ اليوم أشعر من لبيد

إن الإمام الشافعى متنوع فنون الشعر، متعدد موضوعاته ومقاصده، ولكن فى
نطاق الالتزام بالقيم الرفيعة، والشمائل النبيلة، من علم وفضل وخلق وزهد وترفع .
يصف الشافعى حاله حين تواجهه المشكلات، وأكثرها مشكلات العلم بطبيعة
الحال . ويبين للقارئ كيف يعالجها، ولا ينسى فى ذلك الإشادة بفضل الله عليه
فيقول :

إذا المشكلاتُ تصدّين لى كشفتُ حقائقها بالنّظرِ
لسانُ كشْقَشَقَةِ الأرحبى أو كالحسام اليمانى الذّكرِ
ولستُ بأمّعةٍ فى الرجال أسائلُ هذا وذا ما الخبرُ
ولكننى مدرّةُ الأصغرين جلابُ خيرٍ وفَرّاجُ شرِّ

ويعلن الشافعى حبه لآل بيت رسول الله ﷺ فى العديد من قصائده، ضاربا
عرض الحائط بمن يتهمه بالرافضية، فمن خير ما قال فى هذا الشأن بيتاه
الجليلين :

يا آل بيتِ رسولِ الله حبّكم فرضُ من الله فى القرآن أنزلهُ
يكفيكم من عظيمِ الفخر أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة لهُ

والشافعى رضى الله عنه فى الذروة العليا بين مقام الأئمة العلماء، ومن ثم فإن
من الأمور الطبيعية أن يصوغ بليغ القول وأطايب الشعر فى العلم وفضله، والعلماء
ومقاماتهم، ومن نماذجه الجميلة فى هذا الشأن قوله :

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبَهُ كَرِيمٌ وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لَنَامَ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَعْظُمُ أَمْرُهُ الْقَوْمَ الْكَرَامَ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ كِرَاعَى الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ

ويبصّر الشافعي - كمعلم فقيه إمام - طالب العلم بالوسائل التي يتوسلها في طلب العلم فيقول :

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بَسْتَةً سَأَتِيكَ عَنْهَا مَخْبَرًا بَبِيَانِ
ذِكَاءٍ وَحِرْصٍ وَاصْطِبَارٍ وَبَلْغَةٍ وَصَحْبَةِ أَسْتَاذٍ وَطُولِ زَمَانِ

ويقول في العلم أيضا عامدا إلى اصطناع البديع في هذين البيتين :

لَنْ يَبْلُغَ الْعِلْمَ جَمِيعًا أَحَدٌ لَا وَلَوْ حَاوَلَهُ أَلْفَى سَنَةٍ
إِنَّمَا الْعِلْمُ عَمِيقٌ بَحْرُهُ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ

والشافعي كمعلم وإمام وصاحب تجربة في الحياة يتخذ لنفسه منهجا في حياته ألزم نفسه به، وطلب إلى مريديه التزامه، يتمثل هذا المنهج عمق الإيمان، وقبول أحكام القضاء والقدر، والصبر على المكاره، والجلد عند الشدائد، وسماحة النفس، وسخاء اليد، فهكذا تكون الحكمة في التعامل مع أحداث الزمان :

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطِبْ نَفْسًا بِمَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَلَا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ جَلْدًا وَشِيْمَتُكَ السَّمَاةُ وَالسَّخَاءُ
فَلَا حَزْنَ يَدُومُ وَلَا سُرُورَ وَلَا بؤْسَ عَلَيْكَ وَلَا رِضَاءُ

ولقد أكثر الحكماء والشعراء القول في فوائد الأسفار وحكمة التنقل، والسفر عند العلماء مذهب وعقيدة، ولم يكن العالم يصيب مكانة بين قومه ما لم يذرع الأقطار طولا ويجوب الأمصار عرضا في طلب العلم، غير أن حكمة السفر والتنقل لا تقف بصاحبها عند الاستزادة من العلم، وإنما تكسبه فضيلة الصبر والجلد واكتساب الرزق ومعرفة الإخوان، وللإمام الشافعي في ذلك أبيات نفيسة مشهورة يقول فيها:

سافرَ تجدَ عوضاً عَمَّنْ تفارقهُ وأنصبَ فإنْ لذيذَ العيشِ في النَّصبِ
إنى رأيتُ وقوفَ الماءِ يفسدُهُ إنْ سألَ طابَ، وإنْ لمْ يجرِ لمْ يطبِ
والأسدُ لولا فراقُ الغابِ ما افترستُ والسهمُ لولا فراقَ القوسِ لمْ تُصبِ
والتَّبرُ كالشَّربِ ملقى في أماكنه والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطبِ

ولللإمام الشافعي بيتان متفردان في جمالهما يصور فيهما غرامه بالسفر، وولوعه بالتجوال، وذلك حين يقول:

سأضربُ في طولِ البلادِ وعرضها أنالُ مرادى أو أموتَ غريباً
فإنْ تلفتَ نفسى فللهِ درُّها وإنْ سلّمتْ كان الرجوعُ قريباً

تلك أبيات متمنطقة بالعقل، ملتفة بالحكمة، مؤيدة بالتجربة، قالها إمام عالم فقيه شاعر، ومن ثم لم يكن غريباً أن نتابع عزفه على أوتار الحكمة في بيتيه ذائع الصيت، برغم أن كثيرين ممن يحفظونهما لا يعرفان أنهما من فيض قريحة الإمام العظيم، وهما قوله:

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونهجُو ذا الزمانَ بغيرِ جُرمٍ ولو نطقَ الزمانُ إذنْ هجائنا

ولقد جمع الإمام الشافعي بين الزهد والتصوف في كثير من شعره فمن هذا
الطراز من الجمع بين الزهد والتصوف قوله :

إن لله عباداً فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَى وَطْنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا

حقاً ما أجمل هذا الطراز من القول الصادق من إمام شاعر صادق ومن هذا
الضرب من السير في نفس الدروب قوله رضي الله عنه :

أَمْتُ مَطَامَعِي فَأَرْحَتُ نَفْسِي فَإِنَّ النَفْسَ مَا طَمَعَتْ تَهُونُ
وَأَحْيَيْتُ الْقُنُوعَ وَكَانَ مَيْتَا ففِي إِحْيَائِهِ عَرْضِي مَصُونُ
إِذَا طَمَعٌ يَحِلُّ بِقَلْبٍ عَبْدٍ عَلَتْهُ مَهَانَةٌ وَعِلَاهُ هُونُ

إن حديث الشعر في حضرة الإمام الشافعي طبع وطويل ، وليس الشافعي الشاعر
موضوع هذا الحديث ، ولكن باحثاً يلج هذا الباب - باب شعر العلماء الفقهاء - لا
يستطيع أن يتجاهل شعر الإمام الكبير ، ومن ثم فسكتفي بذكر نموذجين آخرين
مستمدين من روحانية الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ،
وكان الشافعي في مقدمة العلماء الذين امتلأت قلوبهم بخشية الله والطمع في
مغفرته ، وفي ذلك يقول :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
وما زلت ذا عفوعن الذنب لم تزل تجود وتغفر منّة وتكرماً

وفى ذلك يقول أيضا:

صبراً جميلاً ما أقربَ الفرَجَا من راقب الله فى الأمورِ نجا
من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيثُ رجا

وإذا ما ذكر الشافعى كشاعر بين أئمة الإسلام فإن الخاطر ينصرف على الفور إلى شاعر آخر من شيوخ الإسلام هو الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى، مع أن الفارق الزمنى بين العالمين الجليلين يناهز سبعة قرون، فلقد توفى الشافعى سنة ٢٠٤ هـ وتوفى ابن حجر سنة ٨٥٢. كان ابن حجر يلقب بالحافظ لتفرده بالإقبال على أحاديث رسول الله ﷺ تحصيلاً وحفظاً ورواية وشرحاً، هذا فضلاً عن عنايته بالقرآن الكريم حفظاً وتفسيراً واستنباطاً للأحكام، يضاف إلى ذلك مؤلفاته الكثيرة النفيسة فى مختلف العلوم والفنون «فانتشرت مصنفاته فى حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر».

إن هذا العالم الجليل الفقيه الحافظ الموسوعى كان صاحب موهبة فى الشعر وعطاء فى القريض، بحيث زاحم معارضيه من الشعراء، وتفوق على كثير منهم، وهو أحد الشهب السبعة من شعراء زمانه المصريين الذين يجىء ذكره فى مقدمتهم، وقد كان كل واحد منهم يلقب بشهاب الدين، نذكر منهم: الشهاب المنصورى والشهاب الحجازى والشهاب الأبيزى المصرى - أصله من أبدة بالأندلس. على أن شعر ابن حجر تتصل أسبابه بالتقوى، وتلتحم حباله بالتوبة. فمن شعره فى هذا السياق قوله منشداً إياه لتلميذه السخاوى:

خلى لى ولّى العمر منّا ولم نَتُبْ وننوى فعال الصالحات ولكنّا
فحتّى متى نبني بيوتاً مشيدةً وأعمارنا منّا تُهدُّ وما تُبنا

وكان شهاب الدين شيخ الإسلام ابن حجر يكثّر من القول فى هذا الضرب الحبيب إلى قلبه، المتعلقة به نفسه مثل قوله:

لقد آن أن نتقى خالقاً إليه المآبُ ومنه النشورُ
فنحنُ لصرف الردى مالنا جميعاً من الموت واق نصيرُ

ولابن حجر العسقلانى شعر كثير فى رحلاته، وخاصة إذا ما كان منها واحدة
إلى المساجد الثلاثة التى إليها تشد الرحال، فقد وصف رحلته من نابلس إلى بيت
المقدس، وكان هذا الطريق على زمانه وعرا صعب المسالك كثير العقبات:

إلى البيت المقدس حيث أرجو جنان الخلد نزلًا من كريم
قطعنا فى مسافته عقاباً^(*) وما بعد العقاب سوى النعيم

وكان لشيخ الإسلام ابن حجر مطارحات شعرية لطيفة مع إخوانه من علماء
زمانه فمن ذلك قوله هذين البيتين:

أشتاقكم شوق العليل إلى الشفا ودياركم فى كل يوم تبعدُ
وأود طيف خيالكم لو زارنى لكن عيني بالكرى لا تسعدُ

ولما سمعهما قاضى الحنابلة المحب بن نصر الله أنشد لنفسه:

شوقى إليكم لا يحد وأنتم فى القلب لكن للعيان لطائفُ
فالجسم عنكم كل يوم فى نوى والقلب حول ربا حماكم طائفُ

ولشيخ الإسلام ابن حجر باع طويل فى شعر الاغتراب، وقد كان الشيخ الجليل
كثير الأسفار، دائم الترحال فى طلب العلم، وكان من رقة الطبع ورهف احسّ
بحيث لا يكاد يقصع مرحلة فى سفر حتى يلح عليه الحنين إلى الوطن، وكان
لسفرته إلى حلب نصيب غير قليل من هذا الشعر الرقيق، وفى ذلك يقول:

كل يوم يمضى أقول تقضى البين فأزداد بالرحيل البعادا
فمتى تنقضى بنا مدة الترحا ل حتى ألقى بسعدى سعادا

(*) عقاب جمع عقبة، وعقبة المكان المرتفع ونحوه.

وقوله :

كلما أسفر النهار وحنّ الليّ لُ أزدادُ لوعةً واشتياقا
كيف لا والديارُ تبعدُ عني كلما سرتُ أو بعدتُ فراقا
يا ديار الأحباب هل من رجوعٍ لمشوقٍ إليك يشكو الفراقا

وعلى الرغم من الوقار الذي كان يتحلى به شيخ الإسلام ابن حجر وحسن معاشرته لإخوانه بخاصة ولمعاصريه بعامة، فقد كانت جفوة قائمة بينه وبين الشيخ العلامة بدر العيني، فقد اتفق أن منارة المدرسة المؤيدية قد مالت على برج باب زويلة، فأنشد ابن حجر هذين البيتين معرضا بالشيخ العيني :

لجامع مولانا المؤيد رونقٌ منارته بالحسن تزهر وبالزین
تقولُ وقد مالت على البرج أمهلوا فليس على جسمي أضر من العين

وبلغ ذلك العيني فقال وأجاد :

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعينٍ قلتُ ذا غلطٌ ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

ولا يخفى ما فى قولهما معاً من جمال التورية وحسن التعريض .

وإذا كنا ذكرنا الشهاب الشعراء السبعة فى صدر حديثنا عن شيخ الإسلام الشهاب ابن حجر، فإنه مما يجمل ذكره هنا الشهاب الحجازى، وهو قاهرى المولد والإقامة والثقافة والوفاء، واسمه أحمد بن محمد بن على الشافعى، وكان مقرئاً مجوداً للقرآن الكريم، وله مشاركة فى علوم الفقه والأصول والحديث الشريف، وله مؤلفات كثيرة نفيسة منها كتاب النيل وآخر فيما وقع فى القرآن على أوزان البحور، وله كتاب فى الألغاز وكتاب فى الحماسة. ومن شعره هذان البيتان المشهوران :

يا من غدا من الذنوب فى خجلٍ وخائفًا من الخطايا والزَلَلِ
ارحم جميع الخلق وارحُ رحمةً فإنما الجزاء من جنس العملِ

ولم ينبج الشهاب الحجازى أبناء ذكورا يحملون اسمه بعد وفاته الأمر الذى
جعله ينشئ هذين البيتين :

قالوا إذا لم يخلف ميتٌ ذكرًا ينسى، فقلت لهم فى بعض أشعارى
بعد الممات أصيحابى ستذكرنى بما أخلف من أولاد أفكارى



شعر جمهرة الفقهاء :

هذا ما كان من شأن الفقهاء الأئمة ومن فى حكمهم فى دني الشعر ومسالكه،
والموضوعات التى عرضوا لها فأحسنوا وجودوا، فإذا ما كان القول متصل الأسباب
بجمهرة الفقهاء الشعراء، فإن خاصة الموضوعات التى طرقوها وقدموها فى ثياب
من رقيق الشعر وأنيق النظم تدور جميعها أو أكثرها فى طاعة الخلاق ومكارم
الأخلاق، من ثناء على الله عز وجل، وتمجيد الحمد وكريم الفعال، وطاعة الله
سبحانه وتقواه، وذم الكذب وتقبيح الحسد، وتعميق الإيمان بالمشيئة الربانية،
والصبر على نكبات الدهر، والحرص على الخل الوفى .

وكان طبيعيا أيضا أن يمدح الشاعر الفقيه العلم الذى يزينه، وهو علم الفقه .
إن الفقيه المصرى الكفيف منصور بن إسماعيل الذى كان يعرف بالفقيه،
المتوفى سنة ٣٠٦ هـ يقول فى مدح علم الفقه :

عاب التفقه قومٌ لا عقول لهم وما عليه إذا عابوه من ضررٍ
ما ضرَّ شمس الضحى فى الأفق طالعةً ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصرٍ

قال ابن خلكان : ومن هنا أخذ أبو العلاء المعرى قوله فى قصيدته المشهورة :

والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيتهُ والذنبُ للعين لا للنجم فى الصغرِ

ولمنصور الفقيه شعر أخلاقى رفيع القدر، بعيد المرمى، فهو يعرض لنميمة
وللكذب، ويقرر أنه قد يجد علاجاً للنمّام، ولكن الأمر ليس كذلك فى الكذاب؛
ومن ثم يقول فى ذم الكذب :

لى حيلةٌ فيمن ينـمّ لم وليس فى الكذاب حيلةٌ
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

ومن الشعراء الفقهاء الذين صفت نفوسهم وصدقوا فى الثناء على الله عز
وجل، محمود الوراق الذى توفى مبكراً فى خلافة المعتصم العباسى فى العقد
الثالث من القرن الثانى، وقد حُسبَ محمود الوراق على شعراء الزهد، ولكن عدداً
من رواة الأخبار عدّوه من رواة الحديث، وذكروا أن عالم زمانه ابن أبى الدنيا كان
يروى عنه، ومن ثم فلا ضير من ضمه إلى فريق الشعراء الفقهاء . ومما يستجد من
شعره فى شكر الله والثناء عليه جل وعلا قوله :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً علىّ له فى مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشُّكرِ إلّا بفضلِهِ وإن طالت الأيامُ واتَّصلَ العُمُرُ
إذا مسَّ بالسراءِ عمُّ سرورِها وإنَّ مسَّ بالضراءِ أعقبَها الأجرُ
فما منهما إلّا له فيه نعمةٌ تضيقُ به الأوهامُ والسُّرُّ والجهرُ

ويكثر محمود الوراق من القول فى سياق حمد الخالق على نعمائه، فيقول فى
مناجاة شفافة :

إلهى لك الحمدُ الذى أنتَ أهله على نعمٍ ما كنتَ قطُّ لها أهلاً
متى زدتُ تقصيراً تزدنى تفضلاً كأنى بالتقصيرِ أستوجبُ الفضلاً

ومن الشعر الرصين النفيس الذى قاله محمود الوراق فى تقرّيع من يعصون ربهم
وتقبيح فعالهم قوله :

تعصى الإله وأنت تُظهرُ حُبَّه هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يُحبُّ مُطيعُ

ومن طراز الشعر الرقيق الصادق في تصوير عجزه عن شكر الله حق شكره
قوله :

أيا ربَّ قد أحسنتَ عوداً وبدأةً إلى فلم ينهضُ بإحسانك الشكرُ
فمنَّ كان ذا عُذرٍ لديك وحُجَّةٍ فعُذري إقرارى بأن ليس لى عُذرُ

ومن الفقهاء الشعراء الشيخ أبو حامد الإِسْتَفْرَائِينِي المتوفى ٤٠٦ هـ، وكان
معظم شعره - على إقلاله - في مكارم الأخلاق، فمن شواهدة في ذلك قوله :

لا يَغْلُونُ عليك الحمدُ في ثمنٍ فليس حمداً وإن أثمرتْ بالغالى
الحمدُ يَبْقَى على الأيامِ ما بقيتْ والدَّهرُ يذهبُ بالأحوالِ والمالِ

وقد سار على هذا النهج الأخلاقي من الفقهاء الشعراء قاضى بغداد المعافى بن
زكريا المتوفى بالنهروان سنة ٣٩٠ هـ، وهو صاحب كتاب «الجلس الأنيس»، وكان
المعافى على مذهب أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، ولذلك كان يلقب
بالجريرى نسبة إلى ابن جرير، إذ إن المشتغين بعلوم الفقه يعرفون أن لابن جرير
الطبرى مذهباً كان له تابعوه تماماً مثل الأحناف والمالكية والشوافع والحنابلة
وغيرهم، ولكن أتباع المذهب قد اندثروا مثلما اندثر أتباع غيره من الأئمة العظام
مثل البيهقي والأوزاعي والثوري وغيرهم.

ومن نماذج شعر المعافى الأخلاقي ما أنشأه في ذم الحسد حيث يقول :

ألا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لى حاسداً أتدرى على مَنْ أسأت الأدبُ؟
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترُضْ لى ما وهبُ
فجأزأك عني بأن زادنى وسدَّ عليك وجوه الطلبُ

وفى الصبر على نكبات الدهر، والإيمان بأن بعد العسر يسرا، وذلك استجابة
للآية الكريمة ﴿إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ يقول أبو على المروزي القاضى الفقيه
أحدث المتوفى سنة ٤٦٢ هـ :

إذا ما رماك الدهر يوما بنكبة فأوسع لها صدرا وأحسن لها صبرا
فإن إله العالمين بفضله سيعقب بعد العسر من فضله يسرا

والفقهاء جميعا يسلمون قياد شئونهم إلى الله، فإن من يعارض المشيئة فقد
نأى بنفسه عن حظيرة الإيمان، هكذا يؤمن الناس الأسوياء وفى مقدمتهم الفقهاء،
وفى ذلك يقول الفقيه الأديب الكاتب محمد بن على بن الحسن المشهور بأبى
الحسن بن أبى الصقر الواسطى الشافعى المتوفى ٤٩٨ هـ :

من عارض الله فى مشيئته فما من الدين عنده خبر
لا يقدر الناس باجتهادهم إلا على ما جرى به القدر

وهذان البيتان يوحيان إلى هذا الأديب الفقيه ثلاثة أبيات فى الرزق، ثم يزج
بإبليس فى موقف ارتضاه منه فى صياغة غريبة وذلك فى قوله :

كل رزق ترجوه من مخلوق يعتريه ضرب من التعويق
وأنا قائل وأستغفر الله له مقال المجاز لا التحقيق
لست أَرْضَى من فعل إبليس شيئا غير ترك السجود للمخلوق

وقد عُمّر ابن أبى الصقر الواسطى طويلا فيما يبدو، ومعروف أن طول العمر فى
نطاق شيخوخة غير سعيدة أمر يدعو إلى الشكوى، وهو تقليد جرى عليه الشعراء
منذ زهير بن أبى سلمى، ومن هنا فإن فقيهننا الشاعر قال يشكو الشيخوخة :

علّة سُميت ثمانين عاما منعتنى للأصدقاء القياما
فإذا عُمروا تمهد عذرى عندهم بالذى ذكرت وقاما

ومن طريف شكوى شيخوخته أيضا قوله :

كلُّ امرئٍ إذا تفكرت فيه وتأمَّلْتِه رأيتَ ظريفا
كنتُ أمشي على اثنتين قويا صرتُ أمشي على ثلاثٍ ضعيفا

ومن القضاة الفقهاء الشعراء الذين أولعوا بقول الشعر في طاعة المولى جل وعلا،
والتغنى بتقواه، أبو عمر النسوى محمد بن عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة
٤٨٧ هـ عن عمر يناهز المائة، وكان يُعرف بأقضى القضاة شأنه في ذلك شأن
معاصره أبي الحسن الماوردى .

إن أبا عمر النسوى يجيء بالمعنى البكر والصوغ الصقيل في شعره في موضوع
التقوى وطاعة الإله، وذلك في قوله :

مَنْ رَامَ عِنْدَ الْإِلَهِ مَنْزِلَةً فَلْيُطِعِ اللَّهَ حَقَّ طَاعَتِهِ
وَحَقَّ طَاعَاتِهِ الْقِيَامُ بِهَا مُبَالِغًا فِيهِ وَسِعَ طَاقَتِهِ

ومنه :

اتَّخِذْ طَاعَةَ الْإِلَهِ سَبِيلًا تَجِدُ الْفَوْزَ بِالْجَنَانِ وَتَنْجُو
وَاتْرِكِ الْإِثْمَ وَالْفَوَاحِشَ طُرًّا يُؤْتِكَ اللَّهُ مَا تَرُومُ وَتَرْجُو

ومن نجوم الفقهاء العلماء الشعراء ذوى المكانة الرفيعة فى أزمانهم وبين أقرانهم،
الشيخ إبراهيم بن على بن يوسف الفيروز آبادى -نسبة إلى مسقط رأسه فيروز آباد -
بكسر الفاء - الذى اشتهر بأبى إسحاق الشيرازى الفقيه الأصولى المحدث الأديب
الشاعر المتوفى سنة ٤٧٦ هـ .

كان أبو إسحاق إمام وقته ببغداد، ولما بنى الوزير نظام الملك مدرسته الشهيرة
التي عرفت بـ « النظامية » سألَه أن يتولى أمرها، ولكنه اعتذر عن عدم قبوله عرض
الوزير الجليل الشهير .

وأبو إسحاق صاحب مصنفات نفيسة، منها: «المهذب في المذهب» يعنى المذهب الشافعى، و «التنبيه» فى الفقه، و «اللمع» فى أصول الفقه، و «النكت» فى الخلاف، و «التلخيص» فى الجدل.

وعلى الرغم من أنه كان فى غاية من الورع والتشدد فى الدين فإنه كان صاحب ملح وفكاهات، منها ما حكاه أبو نصر خطيب «الموصل» قال لما جئت بغداد، قاصداً الشيخ أبا إسحاق، رحّب بى، وقال: من أى البلاد أنت؟

فقلت: من الموصل.

فقال: مرحباً أنت ببلدتي.

فقلت: يا سيدنا أنا من الموصل، وأنت من فيروزآباد.

فقال: مبتسماً يا ولدى، أما جمعنا سفينة نوح.

وأما شعر أبى إسحاق فمثل قطع الجواهر نفاسة وبهاء، وحسن سبك وثناء معنى، يريد أن ينبه الناس إلى الخلل الوفى الذى ندر وجوده فيقول:

سألتُ الناسَ عن خِلٍّ وفِيٍّ فقالوا ما إلى هذا سبيلُ
تمسّك إن ظفرت بذيّلٍ حرٍّ فإن الحرَّ فى الدنيا قليلُ

ويقول فى رثاء غريق فى معنى جديد لا يحسن طرقة إلا شاعر مجيد:

غريقٌ كأن الموت رَقَّ لفقدِهِ فلان له فى سُورةِ الماءِ جانبُهُ
أبى الله أن أنساهُ دهرى لأنَّهُ توقَّاهُ فى الماءِ الذى أنا شارِبُهُ

وأما شعر الفيروزآبادى الشيرازى فى شئون الإيمان، وتمجيد الخالق، والصبر على المشكلات، والانصراف عن طلب العون من المخلوق، فهذا هو ميدانه الحقيقى حيث يسبح فيه كما يسبح الجواد الأصيل فى مضمار المنافسة، ولعل من أجمل إبداعاته الشعرية فى ذلك قصيدته الثائية التى عن لى أن أطلق عليها: قصيدة «أدب النفس مع الله» وفيها يقول:

صَبَرْتُ عَلَى بَعْضِ الْأَذَى خَوْفَ كُلِّهِ
وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوهَ حَتَّى تَدَرَبْتُ
فِي أَرْبَ عَزٍّ جَرٍّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً
وَمَا الْعِزُّ إِلَّا خِيفَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ
فِيَا صَدِّقْ نَفْسِي إِنَّ فِي الصَّدَقِ حَاجَتِي
وَأَهْجُرْ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ فَإِنِّي
إِذَا مَا مَدَدْتُ الْكَفَّ أَلْتَمِسُ الْغِنَى
إِذَا طَرَقْتَنِي الْحَادِثَاتُ بِنَكْبَةٍ
وَمَا نَكْبَةٌ إِلَّا وَلِلَّهِ مَنَّةٌ
تَبَارَكَ رِزَاقُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
فَكَمْ عَاقِلٍ لَا يَسْتَبِيتُ وَجَاهِلٍ
وَكَمْ مِنْ جَلِيلٍ لَا يُرَامُ حِجَابُهُ
تَشُوبُ الْقَذَى بِالصَّفْوِ وَالصَّفْوُ بِالْقَذَى
وَالزَّمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَقَرَّتْ
وَلَوْ حَمَلْتُهُ جُمْلَةً لَا شِمَازَتْ
وَيَا رَبَّ نَفْسٍ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتْ
وَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتْ
فَأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتْ
أَرَى الْحَرَصَ جَلَابًا لِكُلِّ مَذَلَّةٍ
إِلَى غَيْرٍ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشَلَّتْ
تَذَكَّرْتُ مَا عُوقِبْتُ مِنْهُ فَقَلَّتْ
إِذَا قَابَلْتُهَا أَدْبَرْتُ وَاضْمَحَلَّتْ
عَلَى مَا أَرَادَ لَا عَلَى مَا اسْتَحَقَّتْ
تَرَقَّتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَعَلَّتْ^(١)
بِدَارِ غُرُورٍ أَدْبَرْتُ وَتَوَلَّتْ
وَلَوْ أَحْسَنْتُ فِي كُلِّ حَالٍ لَمَلَّتْ

ومن أجمل ما أنشأ العلامة الشاعر أبو إسحاق الشيرازي في المناجاة الربانية،
والابتهالات الصوفية، وضروب الخضوع الصمدانية، قوله :

لَبَسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا وَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجْدُ
وَقُلْتُ يَا عُدَّتِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَمَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضَّرِّ اعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلَا جَلْدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالضَّرِّ مُبْتَهَلًا إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلَا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبَّ خَائِبَةً فَبَحْرُ جُودِكَ يُرَوِّي كُلَّ مَنْ يَرُدُّ

(١) تَقَلَّى : تَعَلَّى : عَلُو لِرَحْلِ : عَلَا فِي تَمَهُّلٍ .

نلت نماذج قليلة لبعض ذوى المواهب من العلماء الفقهاء، ولو أننا أطلقنا للقلم العنان لامتد هذا التقديم طويلاً ليصير سفراً. وفاض عرضاً ليصير كتاباً، ولكننا أردنا أن نضع شيخنا الجليل محمداً الغزالي فى مكانه الرحب الخلق به بين جمهرة الأفاضل ذوى المواهب من العلماء الشعراء.



فقهاء عشاق شعراء :

أما وقد عرضنا لهذه الفنون الرصينة من شعر الفقهاء، وهى تجرى جميعها فى مضمار الدين وحسن السلوك ومكارم الأخلاق، فإن خاطراً ما قد يثور فى نفس قارئ، فحواه استفهام عما إذا لم يجر قلم شاعر فقيه كى يترجم عن خفقات قلبه ونوازع فؤاده، فالفقهاء بشر لهم قلوب تخفق ونفوس تعشق وجوانح يضيئها العشق ويسهرها الغرام.

إن الإجابة على هذا التساؤل تقع فى نطاق الإيجاب، غير أن حياء الفقيه وتصوّنه يمنعه من الإعلان. ووقار العلم ومكانته تقفان دون البوح والشكاية، ولكن وعلى الرغم من ذلك فقد وجد الفقهاء العشاق والعلماء المحبون الذين لم يستطيعوا الكتمان، فباحوا بمكنونات مشاعرهم، ولم يتحملوا عبء الصبابة، فترجموا عن وجدهم وصبابتهم شعراً جميلاً أخاذاً، وغزلاً رقيقاً عفيفاً. حفظته الخواطر وروته الأجيال.

هذا الفريق من الفقهاء العشاق ليسوا من الكثرة بمكان بحيث يشكلون ظاهرة فى مجتمع العلماء، ولكنهم وجدوا على أية حال، وذاع شعرهم وشاع غزلهم، ورددته ربّات الخدور مثلما رجّعته ألسنة الرجال.

كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود واحداً من هؤلاء الشعراء الفقهاء العشاق، وهو فقيه إمام من صفوة التابعين، وهو أيضاً أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة فى عصر التابعين ولكنه كان رقيق الحسّ، مشبوب العاطفة فى ثوب من العفة، وإطار من التصوّن قولاً وسلوكاً، ومن قصائده الغزلية التى سارت مسرى النجوم اللامعة فى كبد السماء الصافية وغناها كبار المغنين فى المدينة قوله :

كُتِمَ الهوى حتى أضرَّ بك الكُتْمُ ولا منك أقوامٌ ولو مُهِمُّ ظَلَمُ
ونَمَّ عليك الكاشحون وقبْلَ ذا عليك الهوى قد نَمَّ لو نفع النَمُ
فيا من لِنَفْسٍ لا تموتُ فينقضى عناها ولا تحيى حياة لها طعمُ
تجنَّبَتْ إتيانَ الحبيبِ تأثُّماً ألا إن هجرانَ الحبيبِ هو الإثْمُ

ويعتذر أصحاب القلوب الرقيقة من حفاظ شعر عبید الله عما حُمِلَتْه الأبيات من وجد، وما حفلت به من شكوى، أنها جاءت على أسلوب التجريد لا بصيغة المتكلم. فصلحت لأن يجد فيها كل محبٌ صبَّ تعبيراً عن كوامن حبه. ومكنونات صباهته.

ويجىء فى مقدمة الشعراء الفقهاء العشاق عروة بن أذينة الذى شغل الناس كل الناس بحرارة غزله ورقة نسيبه، فغزا قلوب العذارى فى خدورهن مثلما شغل النقاد والمتأدبين ببراعة صوغه وعبقرية بيانه.

كان عروة محدثاً ثبتاً، يقول ابن قتيبة إنه كان يحمل عنه الحديث - أى يروى حديث رسول الله ﷺ - ويروى عن الأصمعى قوله فى عروة: إن الإمام مالك بن أنس كان يروى عنه أى يأخذ عنه حديث رسول الله، وقد توفى عروة سنة ١٣٠هـ.

كان عروة كريماً على نفسه، معتزاً بمكانته بين الناس، فوفد على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، فلما دخل على هشام إذ به - أى هشام يقول: أأست القائل:

لقد علمتُ - فما الإسراف فى طمعى - أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيُعْنينى تطلبُّه ولو قعدتُ أتانى لا يُعْنينى

قال عروة: نعم. قال هشام: فما أقدمك علينا؟، قال: سأنظر فى أمرى، وانصرف على الفور، فأخبر هشام بذلك، فأتبعه بجائزته.

هذا سلوك العماء مع الملوك والخلفاء، أما فى شعر الغزل فمن أشهر ما قال، ومن أرق ما أنشأ فى شعر الغزل تلك الأبيات التى سجلتها كتب الحماسة وطبقات الشعراء وحفظها العشاق والأدباء:

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لا وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسألها

ومن طريف ما أنشأ شاعرنا الفقيه فى مجال الغزل أيضا، ذلك الحوار الذى أجراه على لسان محبوبته ممثلاً فى هذين البيتين:

قالت، وأبشثتها وجدى، فبُحت به: قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى؟ فقلت لها: غطى هواك وما ألقى على بصرى

هذا الضرب من الحوار يذكرنا بمثيله عند عمر بن أبى ربيعة، ولكن شتان الفرق بين عفة عروة وجرة عمر.

وكان الشعراء من أهل مكة والمدينة يحتفلون بالموسم ويصفون الخفريات الجميلات فى مناسك الحج، وقد رسم عروة بن أذينة على نفس المنوال، ولكن فى نطاق رقة اللفظ وعفة الكلمة، وبراعة الصوغ، وأناقة التعبير:

لبثوا ثلاث منى بمنزل غبطةٍ وهم على غرضٍ لعمرُك ما هم
متجاورين بغير دار إقامةٍ لو قد أجدَّ رحيلهم لم يندموا
ولهنَّ بالبيت العتيق لبانةٌ والبيت يعرفهنَّ لو يتكلم
لو كان حياً قبلهنَّ ظعائنا حياً الخطيمُ وجوههنَّ وزمزم
وكأنهنَّ وقد حُسنَ لواغباً بيضُ بأكنافِ الخطيمِ مُركم

إن مجتمعا مثل مجتمع المدينة هو فى واقع أمره مجتمع أحرار وحرائر، ولذلك لم يكن مستغربا أن يواجه عروة ببعض من تعترض على شعره من حرائر أهل المدينة، فقد وقفت عليه واحدة من هؤلاء النساء الحفرات وقالت : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى عمدت نحو سقاء الماء أبرد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تنقد

ثم أردفت قائلة : لا والله ما قال هذا رجل صالح .

ومن الفقهاء الشعراء ذوى الأقدام الراسخة فى الشعر أحمد بن المعذل، فقد كان فقيه فقهاء المالكية فى العراق، وكان يلقب بالراهب بغزارة فقهه وطول نسكه .

فمن شعره الذى يتأله فيه ويتقرب إلى الحضرة الإلهية ذاكرة القيامة والموقف ما رواه المبرد قائلا :

رأيت أحمد بعرفات مُضحياً للشمس لا يستظل . فقلت ما هذا يا أبا الفضل ؟ فقال :

ضحيتُ لكيما أستظل بظله إذا الظل أضحى فى القيامة قالصا
فيا أسفى إن كان سعيك باطلا ويا حزنا إن كان أجرك ناقصا

ومن الطريف أن فقيهما الشاعر أحمد بن المعذل هو أخو الشاعر المشهور عبد الصمد بن المعذل الذى لم تكن حياته تخلو من مجون وانحراف، وكان أحمد يساكن عبد الصمد فى بيت واحد، وكان أحمد يبكر فى الذهاب إلى المسجد ليؤم الناس فى صلاة الفجر، ويمر بأخيه فيجده سكران، فيهرزه ويسمعه قول الله زاجرا إياه : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ فيرد عليه عبد الصمد بآية من الكتاب العزيز تاليا قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ .

ومن أرق ما أنشأ شاعرنا الفقيه أحمد بن المَعْدِل في الغزل هذه الأبيات المترفة المعاني، الحباشة بالفاظ العشق، المترعة بساحر النغم:

أخو دنفِ رمتُهُ فأقصدتهُ سهامٌ من لحاظك لا تطيشُ
قواتلٌ لا قداح سوى أحورارٍ بهنٍ ولا سوى اللحظات ريشُ
أصبَن سواد مهجته فأضحى سقيماً لا يموت ولا يعيشُ
كئيبٌ إنَّ تحمّل عنه جيشٌ من البلوى، ألمٌ به جيوشُ

ومن الفقهاء الحفاظ الذين جمعوا بين الإبداع في وصف الطبيعة والإغراق في قول الغزل، الراوية المحدث أبو بكر بن عبد الرحمن الزهري في قوله:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبُستاناً من النورِ حالياً
أجدُ لنا طيبُ المكان وحُسْنه منى، فتمنينا فكنت الأمانيا

لقد افتتن شاعر العربية الكبير أبو تمام الطائي بهذين البيتين فجعبهما إحدى حماسياته في باب الغزل.

ومن الشعر الغزلي الذي استتر تحت وصف ورقاء ذكرت إليها وعشيرها المفارقة فبكت، قول أبي بكر الشبلي الصوفي الكبير مقترضا جحافل الصباية والجوى من حال الورقاء أبياته تلك المشهورة التي نرجح أنه أنشأها قبل أن يسبح في بحار الصوفية الصافية والتي صار واحدا من كبار أعلامها. يقول الشبلي:

رُبَّ ورقاء هُتوف في الضُّحى ذات شجورٍ صدحت في فنن
ذكرت إلهاً وعيشاً سالفاً فبكت حُزناً فهاجت حزنِي
فبكائي ربُّما أرقها وبُكاها ربُّما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني
أتراها بالبكا مولعةً أم سقاها البين ما جرّعني

إنه من الواضح بمكان أن كلاً من الزهرى والشبلى يمتحان من ينبوع واحد هو سحر الطبيعة ويصبان كذلك في بستان واحد هو بستان الغزل، الأمر الذى تطلب من كل منهما ألفاظاً كأنها الديباج نعومة وحسناً، وخيالاً مجنحاً كرفرفات الفراشات فى أحواض الزهور.

ومن الفقهاء الشعراء الذين بلغوا درجة الإمامة محمد بن داود الظاهري وكان على مذهب الظاهرية، وهو مذهب أبيه داود الظاهري، وكان محمد - وكنيته أبو بكر - متمكناً فى علمه، متفجراً فى حوارهِ، ربيعاً فى أدبه حتى إن صلاح الدين الصفدى لقبه بالإمام ابن الإمام، ووصفه بأنه من أذكى العالم.

ومؤلفات محمد كثيرة يجىء فى مقدمتها كتاب « الزهرة » و « الوصول إلى معرفة الأصول » و « اختلاف مسائل الصحابة » وتوفى سنة ٢٩٧ .

إن كتاب « الزهرة » وهو فى الأدب يدلنا على مكانة رفيعة تبوأها محمد بن داود فى الأدب والتعلق به والإحاطة بفنونه وبخاصة الشعر، وكان لمحمد مجلس علم وأدب يؤمّه العلماء والأدباء والشعراء، وقد وفد على مجلسه ذات يوم الشاعر المبدع ابن الرومى وقدم إليه رقعة من الورق، فأخذ يقلبها ظناً منه أنها مسألة يراد الإجابة عن محتواها، ثم لم يلبث أن كتب الإجابة على ظهرها.

أما الرسالة فكانت بيتين من الشعر قال فيهما ابن الرومى :

يا بن داود يا فقيه العراق أفتنا فى قوائل الأحداق
هل عليهن فى الجراح قصاص أم مباح لها دم العشاق

وأما جواب الرسالة فكان هذين البيتين على نفس البحر والقافية والروى :

كيف يفتيكم قتل صريح بسهام الفراق والاشتياق
وقتل التلاقى أحسن حالا عند داود من قتل الفراق

وأما نفثات فؤاده فى الغزل فهى مما ينظمه فى سلك شعراء الغزل المشهورين، فمن ذلك قوله :

أنزّه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال المحرّما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنّه يُصبّ على الصخر الأصم تهدّما
وينطلق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي ردّه لتكلّما
رأيت الهوى دَعوى من الناس كلهم فما إن أرى حبا صحيحا مسلما

وإن الذي يتناول محمد بن داود الظاهري في نطاق حديث الفقه والشعر معا لا يجد مناصا من أن يقفز إلى الحديث عن أبي محمد بن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ، ذلك العالم الفقيه الموسوعي الأديب المفسر المؤرخ عالم الأصول والأحكام الذي يعد واحدا من أكثر العلماء تأليفا للكتب، وقد أحصى من أرخوا له كتبه بأربعمئة مجلد في نحو ثمانين ألف ورقة، وإن أشهر كتبه التي بين أيدينا «المحلى» ويقع في عشرة مجلدات وهو كتاب في الفقه الظاهري بشكل خاص والفقه المقارن بشكل عام ومن كتبه الشهيرة أيضا «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ومنها «الإحكام لأصول الأحكام» و «جمهرة الأنساب» و «المفاضلة بين الصحابة» و «مداواة النفوس» و «إبطال القياس والرأى».

غير أن الذي يهمنا في هذا المضممار هو شعره في الغزل، وكان أكثر شعره يسير في هذا الدرب، ومن ثم فنحن نشير هنا إلى ثاني كتب ابن حزم شهرة، وهو «طوق الحمامة في الألفة والألف» فالكتاب موضوعه العشق والغزل، وهو مطرز بقصائد ومقطوعات لابن حزم تمثل مختلف مواقف العشق ومواطن الغرام، ويترجم لكل موقف بقصيدة من شعره تكون مفرطة الطول حيناً وبالغة القصر حيناً آخر.

ولكن ذلك لا يعنى أن موضوعات شعر ابن حزم اقتصر على العشق دون غيره من الموضوعات، لأن لهذا العالم شعرا ذاتياً أملت عليه مواقف الاضطهاد التي تعرض لها طوال حياته، بعضها كان يعبر فيه عن آلامه ويترجم فيه عن إحساسه بالإحباط لأن قومه لم يعطوه حقه من التقدير والتكريم، وهو ما عبر عنه بعمق وصدق في بيته:

أنا الشمسُ في جوِّ العلوم منيرةٌ ولكنَّ عيبي أنْ مَطْلَعِي الغربُ
وإنَّ رجالاً ضيَّعونِي لضُيْعٍ وإنَّ زماناً لم أنلْ خَصْبَهُ جذبُ

فإذا ما كان الشعر متعلقاً بالعشق والغرام والسهر والضحى، فإن له في ذلك شعر جميل، ففي موضوع طيف الخيال يقول:

زار الخيالُ فتىً طالتْ صبابتهُ على احتفاظٍ من الحُرَّاسِ والحَفَظَةِ
فبتُّ في ليلتي جدلاً مُبْتَهَجاً ولذَّةُ الطيفِ تُنسى لذَّةُ اليَقْظَةِ

ومن أرق ما قاله ابن حزم في هذا الغرض تلك الأبيات اللطيفة المحتوية، العذبة الإيقاع:

أنت في مشرقِ النهارِ بخيلٌ وإذا الليلُ جنَّ كنتَ كريماً
تجعلُ الشمسُ منك لي عوضاً هيَّ هات ما ذا الفِعالُ منك قوياً
زارني طيفُك البعيدُ فيأتني واصلاً لي وعائداً ونديماً
غير أني منعتني من تمام العيِّ ش لكن أبحت لي التشميماً
فكأنني من أهل الأعراف لا الفر دوس دارى ولا أخاف الجحيماً

وكان الفقيه الشاعر العالم ينمق شعره في أحيان كثيرة بالغزل المباشر في حسناء ذات تميز عن قريناتها كأن تكون شقراء مثلاً، فلا يتردد في إسباغ صفات الجمال المتفرد على شقرتها وكانت الشقرة تباعد بين المرأة والجمال في ذوق العرب المشاركة:

يعيبونها عندي بشُقْرةٍ شَعْرِها فقلتُ لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبون لونَ النُّورِ والتَّبرِ ضَلَّةً لرأى جهولٍ في الغواية مُمْتَدِّ
وهل عاب لونَ التَّرجسِ الغَضَّ عائبٌ ولونَ النُّجُومِ الزَّاهراتِ على البُعدِ

وإن المتابع لشعر ابن حزم سواء ما ورد في ديوانه أو ما ساقه على صفحات « طوق الحمامة » سوف يلاحظ بوضوح المصطلحات الفقهية، وبعض القيم الأخلاقية تشبع بين سطور القصائد، وغالبا ما تكون في خواتيمها، مثال ذلك قوله :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبّت التصاؤن جملة	وأنت عليهم بالشرعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه	صراحا وزى للمرئين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد	وهل منعه في محكم الذكر ثابت
إذا لم أواقع محرما أتقى به	مجيئى يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالى فى الهوى قول لائم	سواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره	وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

وإن ذكرنا لابن حزم - شاعرا - وهو العالم الفقيه الجليل - وبخاصة فى شعر العشق والصبابة يجعلنا نلتفت بعناية إلى معاصره وقريعه، المتصدى له فكرا وفقها، أبى الوليد الباجى الذى كان شاعرا متقنا - شأنه فى ذلك شأن باقى فقهاء الأندلس - فإنه قال غزلا خفرا مهذباً رقيقاً عفاً فى حاجات بيت الله فى إحدى رحلاته لأداء الفريضة :

قال الشيخ الفقيه الحجة، الشاعر المبدع أبو الوليد الباجى :

أسروا على الليل البهيم سراًهم	فنمت عليهم فى الشمال شمائل
متى نزلوا ثاوين بالخيف منى	بدت للهوى بالمأزمين مخايل
فلله ما ضمت منى وشعابها	وما ضمنت تلك الربا والمنازل
ولما التقينا للجمار وأبرزت	أكف لتقبيل الحصى وأنامل
أشارت إلينا بالغرام محاجر	وباحت به منا جسوم نواحل

ألم نقل إنه غزل خفر حيى عفيف، زخرفته كثير من فنون البديع التى لا يكاد يحسها إلا من يرقبها عن عمد، لأن رقة الشعر وعمقه وانسراجه إلى قلب القارئ حجب ألوان البديع الذى وشح الشاعر الفقيه بها أبياته .

أما ونحن فى الأفق الأندلسى نذكر علماء الفقهاء الشعراء متمثلين لاثنين من أعلامه هما ابن حزم وأبو الوليد الباجى، وكان من الميسور أن نذكر عشرات من العلماء الشعراء لولا ضيق المناسبة، فقد بات من اللائق أن نعبر المضيق جنوبا إلى المغرب حيث نطل على أوجد علمائه ونجم سمائه القاضى عياض اليحصبى، وإن كان من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن عياضا لم يكن غريبا عن الأندلس، ففى قرطبة الغراء اغترف علمه وخالط رجاله وجلس إلى علمائه، فهو والأمر كذلك ثمرة غرس القطرين، وحصاد زرع الأفقين، أفق المغرب وأفق الأندلس، فهو العالم القاضى الفقيه المحدث الأصولى الراوية، صاحب كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» وهو من أجل كتب السيرة، وكتاب «ترتيب المدارك» فى الترجمة لأعيان مذهب الإمام مالك، وكتاب «مشارك الأنوار» فى حديث رسول الله ﷺ، وكتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرؤية وتقييد السماع» فى مصطلح الحديث، وكتاب «الغنية» فى ذكر شيوخه وغير ذلك كثير، والقاضى عياض بالإضافة إلى ذلك كله شاعر مبدع، وفارس مغوار، وسياسى حاذق، وبين صفاته وشمائله وعدمه وسلوكه وكفاحه ما يجعله وشيخنا محمدا الغزالى فارسين من فرسان الإسلام، للتقارب الغريب بينهما فيما ذكرناه للقاضى من صفات على الرغم من بعد الشقة الزمنية ونأى المسافة المكانية .

إن للقاضى عياض شعرا كثيرا جميلا، أتينا بشيء منه فى كتابنا «المغرب والأندلس» ولكن قوله فى الغزل قليل ونادر، وهو على الرغم من قلته وندرته، يصدر عن قلب خافق وصدر محرور، ومن نماذج غزله هذان البيتان الرقيقان :

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لِيَالِي وَصَلِّهَا بِالرُّقْمَتَيْنِ
كَلَانَا نَاطِرُ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعَيْنَهَا وَرَأَتْ بَعَيْنِي

وإذا كان لنا أن نعود إلى المشرق بعد أن شغلنا بشعرهما أندلسيان عظيمان هما ابن حزم وأبو الوليد الباجي، فلتكن عودتنا قصيرة نذكر فيها مرة أخرى شيخ الإسلام شهاب الدين بن حجر العسقلاني، الذي أسهم في مجال شعره بأقوال في الغزل، ولكن غزله لم يكن في غير ذات محرم، وإنما كان في زوجته الحلبية «ليلي» التي آثرت البقاء في بلدتها حين قرّر قرار الشيخ على العودة إلى القاهرة، ولم يتيسر لها أن ترحل معه. يقول شيخ الإسلام ابن حجر:

رحلتُ وخَلَّفْتُ الحبيبَ بداره برغمي ولم أجنحْ إلى غيره ميلا
أشاغلُ نفسي بالحديثِ تعلُّلا نهاري وفي ليلي أحنُّ إلى ليلي

وفي المعنى نفسه يقول الشيخ الجليل ابن حجر العسقلاني:

قف واستمعْ طرباً فليلى في الدُّجا باتتْ معانقتي ولكن في الكرى
وجرى لدمعي رقصةٌ بخيالها أترى درى ذاك الرقيبُ بما جرى



الغزل الصوفي:

رأينا أن عدداً غير قليل من العلماء الفقهاء الشعراء الذين بلغ بعضهم مرتبة شيخ الإسلام لم يترددوا في أن ينشئوا قصائد غزلية ومقطوعات في العشق والنسيب، مستلرقتها أوتار القلوب. وأثارت أشجاناً في نفوس المحبين وجوانح العشاق، على أن الغالبية العظمى منها لم تبح باسم معين أو تبين عن محبوبة بذاتها، اللهم إلا شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني الذي باح باسم محبوبته بوها لا يشكل خطأ ولا يحمل إثمًا، لأن من باح باسمها هي زوجته الحلبية التي لم تهين لها المقادير مرافقة زوجها في رحلة العودة إلى الوطن.

نقول ذلك وعيننا مسلطة على الديوان الذي بين أيدينا - ديوان الشيخ الغزالي - الذي خلا من أية صورة غزلية ولو في بيت واحد، وبخاصة أن الشيخ الجليل أنشأ

جميع شعره وهو فى مرحلة الشباب، ولكن الذين عرفوا الشيخ الغزالى فى مراحل حياته المتتابة - وأنا واحد من هؤلاء - لم يعرفوا عنه إلا العفة فى القول والتصون فى الفعل والاستعلاء فى السلوك، مع أن الشيخ لو قال شيئاً فى الغزل فإن أحداً لا يؤاخذه لأن كبار المتصوفة أمثال الجنيد والسقطى والشبلى وابن العريف وغيرهم قد جعلوا من صيغة الغزل معبراً إلى ترديد الحب الصوفى والعشق الإلهى .

ولكن الشيخ الغزالى أبى أن يتغزل فى شعره حتى ولو فعل ذلك رجال أحبهم وتعلق قلبه بهم، وهم معتدلو المتصوفة، وإن كان رسم على منوالهم فى ذكر الخمر على ما سوف نبين فى الصفحات المقبلة إن شاء الله .

يذكر الجنيد فيما يرون من أخبار السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥١هـ أنه - أى السقطى - كان كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

ولما ادعتُ الحبَّ قالتْ كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحبَّ حتى يلصق الجلد بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلَّ حتى لا يسقى لك الهوى سوى مقلّة تبكى بها أو تناجيا

إننا غير واثقين من أن يكون السقطى القطب الصوفى الكبير هو صاحب الأبيات، لأن الجنيد ذكر أنه كان يرددها ولم يقل إنه صاحبها، ولكن سواء كانت الأبيات له أم لغيره فقد كان القطب الكبير معجبا بها، مردداً لها بصورتها الغزلية الواضحة المعالم التى يحسها كل قارئ لها .

وتتفجر عاطفة الحب الإلهى فى أبيات أنشأها القطب الصوفى أبو الحسين النورى وبعث بها إلى صديقه أبى سعيد الخراز يقول فيها :

لعمري ما استودعتُ سرى وسره سوانا حذاراً أن تشيع السرائرُ
ولا لاحظته مقلتاي بنظرة فتشهد نجوانا القلوب النواظرُ
ولكن جعلتُ الوهم بينى وبينه رسولاً فأدى ما تكن الضمائرُ

بل إن الجنيد نفسه - المتوفى سنة ٢٩٧ - كان يردد فى مجالسه ما كانت تجيش به نفسه وتسعفه به ملكته من قصائد الغزل فى الحب الإلهى ، وقد سألته رجل ذات مرة مسألة بعينها فأنشد قائلا :

نم على سرّ وجده النفس والدمع من مقلتيه ينبجس
مدله هائم له حرق أنفاسه بالحنين تخلس
يا بأبى الأشعث الغريب فتى ليس له دون سؤله أنس
يا بأبى جسمه الزكى وإن كان عليه خليق دنس

والحقيقة أن للغزل الصوفى جانباً متميزاً روحانياً يتذوقه من كان ذا مشاركة فى الحسّ الصوفى . وهو ما لا نكاد نحسه حتى فى شعر العذريين المتسم بالعفة المسربل بالطهر ، أحسنا بذلك فى النماذج السالفة الذكر فيما مضى من سطور ، ونعود لكى نتذوق أريجه فى أبيات الصوفى أبى العباس أحمد بن سهل بن عطاء المتوفى سنة ٣٠٩ هـ حيث يقول :

غرست لأهل الحب غصنا من الهوى ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلى
فأورق أغصانا وأينع صبوة وأعقب لى مرأ من الثمر المحلى
وكلّ جميع العاشقين هواهم إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

ويتفنن الشاعر الصوفى ويبدع القول حين يجيئش وجدانه ويعتصر وجده ، فيصدر شعره عن شفافية لا تتأتى إلا لصاحب وجد ، ولا تتوافر إلا لحليف شوق ، مثال ذلك تلك الأبيات التى انثالت من وجدان ابن العريف الصنهاجى أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء المتوفى سنة ٥٣٧ هـ .

ما زلت مذ سكنوا قلبى أصون لهم لحظى وسمعى ونطقى إذ هم أنسى
حلّوا الفؤاد فما أندى ولو وطئوا سخرأ لجاد بماء منه منبجس
وفى الحشا نزلوا والوهم يخرجهم فكيف قرؤا على أذكى من القبس

تلك أبيات قيلت في مطلق الغزل بدون تعيين مسمى أو تحديد معشوق، وإنما هي أقوال صرفها قائلوها من الصوفية الكبار إلى العشق الإلهي والحب القدسي .

على أن أكثر المتصوفة اتخذوا من « ليلي » رمزا لحيهم ودليلا على عشقهم، وقد جعلوا من ليلي العامرية صاحبة قيس بن الملوح إمام العذريين مفتاحا لرمزهم، واتخذوا من قيس وأشعاره وسيلة للتعبير عن مشاعر الوجد وبواعث الحب .

صحيح أن بعض الشعراء المتصوفة لم يقتصرُوا على ذكر « ليلي » وحدها، وإنما ذكروا معها أسماء أخرى مثل سلمى ولبنى وسعدى، ولكن غالبية المتصوفة ابتداء من القرن الثانى والثالث ممثلين فى أبى بكر الشبلى مروراً بالقرون المتوالية ووصولاً إلى القرن الثانى عشر الهجرى وما بعده مثلاً فى عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ من الهجرة قد التزموا بذكر « ليلي » وجعلوا منها رمزا لعشقتهم، فهذا أبو بكر الشبلى يقول :

لقد فَضَّلْتُ « ليلي » على الناس كالتى على ألف شهرٍ فَضَّلْتُ ليلةَ القدر
فيا حُبَّها زِدْنِي جوًى كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيام موعِدُك الحشرُ

ولعلنا نلاحظ بلاغة الرمز بليلى وعمق مدلول مقصوده، على الرغم من الإقواء فى روى البيت الثانى .

وهذا أبو مدين التلمسانى من كبار متصوفة المغرب فى القرن السادس الهجرى والمتوفى سنة ٥٩٤ ينشئ قصيدة نونية القافية غامرة بالحنين مترعة بالإيقاع الموسيقى يقول فى بعضها :

تقولُ ناسٌ قد تملكهُ الهوى أجلُ لستُ فى ليلي بأوّل من جُنّا
خفيتُ بها عن كلِّ ما علم الورى وأظهرُ لُبْنى والمرادُ سوى لُبْنى
وإنى كما شاء الغرامُ موحدٌ وإن ملّتُ تمويهاً إلى الروضة الغنا
يذكرنى مرُّ النسيم .. بعرفها ويُطربُننى الحادى إذا باسمها غنى
ولا عجبٌ منى الحنينُ وذو الهوى إذا شاقه شوقٌ إلى قصده حنا

فلله ما أرضى فؤادى لما به وذا الحال ما أحلى وذا العيش ما أهنا
أوافق قوماً ضمهم مقعد الهوى وإن كان كل منهم قاصداً فنا
فهذا يورى بالغزاة غيرة وهذا بعين السكر يستملح الغصنا
وهذا بلين العطف يبدى صباة وهذا يرى ميلاً إلى المقلة الوسنى
وذا فى سرور بالدنو وذا له غراماً وهذا بالنوى يظهر الحزنا

ويمضى الشاعر القطب الصوفى أبو مدين التلمسانى يسوق جيوشاً من المعانى وقوافل من عبارات المناجاة الحافلة بالصور الجميلة، ثم يختم قصيدته بهذا البيت اللطيف :

وإنى على ما أكّد العهد بيننا مدى الدهر لا خنا العهود ولا حلنا

وكان شاعر المتصوفة ومتصوف الشعراء عمر بن الفارض أوفى الشعراء إقبالا على ذكر « ليلى » التى تمثل المفتاح السحرى لمغاليق معانيه، وهى ظاهرة تلفت نظر ذوى الاهتمام بأشعاره. يقول ابن الفارض من قصيدة ميمية تقترب منها كثيراً برودة البوصيرى، بحيث إنه لولا سبق عمر فى الميلاد والوفاة بعدة عقود من السنين لظن كثير من الدارسين أن عمر قد نسج فى قصيدته هذه على منوال البردة. يقول عمر ابن الفارض :

هل نار « ليلى » بدت ليلاً بذى سلم أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم
أرواح نعمان : هلاً نسمة سحراً وماء وجرة : هلاً نهلة بقم
يا سائق الظعن يطوى البيد معتسفاً على السجل بذات الشيخ من إضم
عج بالحمى يا رعاك الله معتمداً خميلة الضال ذات الرند والخزم
وقف بسلع وسل بالجذع هل مطرت بالرقمتين أثيلات بمنسجم

لقد سبق أن ذكرنا أن رمز «ليلي» مقتبس من ليلي بذاتها، هي ليلي العامرية صاحبة قيس بن الملوح، وهو ما يثبتته هنا عمر بن الفارض في إبانة وصراحة من خلال هذه الأبيات بعامة والبيت الثاني بخاصة قائلا:

أوميضُ برقٍ بالأبيضِ لاحا أم في ربي نجدُ أرى مصباحا
أم تلك ليلي العامرية أسفرت ليلا فصيرت المساء صباحا
يا راكب الوجناء وقّيت الردى إن جبت حزنا أو طويت بطاحا
وسلكت نَعَمان الأراك فعُجِ إلى وادٍ هناك عَهْدته فيّاحا
وإذا وصلت إلى ثنّيات اللوى فانشدُ فؤادا بالأبيض طاحا

إن المتمعن في تناول عمر بن الفارض لموضوعاته يلحظ أنه لا يكتفى بذكر ليلي وما يحيطها به من جو العشق وألوان الصبابة، ولكنه يلاحظ أيضا طبعا لما تنبه إليه زميلنا وصديقنا الدكتور عاطف جودة نصر في كتابه النفيس «الرمز الشعري عند الصوفية» أن هذا الضرب من الشعر على الرغم من أنه يصف أحوالا وجدانية خاصة بالتجربة الصوفية، فهو أيضا يعكس أحاسيس بصرية مادية، مع ذكر الكثير من الأماكن التي تُنقى صورة طبوغرافية على الموقف والمناسبة، ولعل هذه الأبيات للشاعر نفسه تمثل تفسيراً دقيقاً لهذا الانطباع الذي سلفت الإشارة إليه حيث تبرز فيها رقة الغزل الصوفي بوصف مشاهد الطبيعة في بلاد الحجاز:

أبرقُ بداً من جانب الغور لامعُ أم ارتفعت عن وجه «ليلي» البراقعُ؟
أنارُ الفضا ضاءت وسلمى بذى الغضا أم ابتسمت عما حكته المدامعُ؟
وهل لعلع الرعد الهتون .. بلعلع وهل جادها صوب من المزن هامعُ
وهل أردن ماء العذيب وحاجر جهاراً وسراً الليل بالصبح شائعُ
وهل عذبات الرند يقطف نورها وهل سلمات بالحجاز أيانعُ
وهل قاصرات الطرف عين بعالج على عهدى المعهود أم هو ضائعُ
وهل فتّيات بالغوير يريننى مبراع نغم نغم تلك المربعُ

وكان أبو العباس المرسى بدوره - وبين وفاته ووفاة ابن الفارض نحو نصف قرن من الزمان فقد توفي سنة ٦٨٦ هـ - يسير في نفس الدرب الغزلي الذي وحيه « ليلي » غير أنه أدنى إلى الصوفية الصريحة، وأقرب مأخذاً من أبيات ابن الفارض سالفه الذكر، ذلك أن الرمز فيها قريب الفهم ميسر الأكناف . يقول المرسى :

أَعْنَدُكَ مِنْ لَيْلَى حَدِيثٌ مُحَرَّرٌ بِإِيرَادِهِ يَحْيَا الرَّمِيمَ وَيُنْشِرُ
فَعَهْدِي بِهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ وَإِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي هَوَاهَا مُقَصِّرُ
وَقَدْ كَانَ عَنْهَا الطِّيفُ قَدْماً يَزُورُنِي وَلَمَّا يَزُرْ مَا بَالُهُ يَتَعَذَّرُ
فَهَلْ بَخِلْتُ حَتَّى بِطِيفِ خَيَالِهَا أَمْ اِعْتَلَّ حَتَّى لَا يَصِحَّ التَّصَوُّرُ
وَمِنْ وَجْهِ لَيْلَى طَلَعَةُ الشَّمْسِ تَسْتَضِي وَفِي الشَّمْسِ أَبْصَارُ الْوَرَى تَتَحِيرُ
وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا بِرَفْعِ حِجَابِهَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ الظُّهُورَ تَسْتَرُ

وهكذا ساقنا شعر الغزل عند العلماء الفقهاء إلى شعر الغزل عند المتصوفة، وهو شعر عذب عند الفريقين، غير أنه عند فريق الفقهاء سهل الفهم ميسر التناول واضح المعاني والقسمات، وهو عند الصوفية أقرب إلى الألغاز التي يحتاج فهمها إلى مفاتيح تكشف كنهها وتفرض مغاليقها، ولها عند منسئليها ما يشبه الشفرة للكشف عن خباياها.



موضوعات شعر الشيخ الغزالي

إذا ما كان الأمر متصلاً بالشيخ الغزالي الشاعر، فإننا نجد أنه تناول الموضوعات التي طرقها الشعراء الفقهاء ولكنه لم يعج على الغزل. ولم يحاول أن يسمح لموهبته أن تجود عليه بببيت واحد منه وكان له مندوحة في ذلك، فقد عرضنا شعرا جميلا عذبا في موضوع الغزل طرقه بعض الفقهاء في سلاسة ورقة، بل في طهارة وعفة، وكذلك فعل المتصوفة وربما غلّوا في ذلك غلوا كبيرا عندما جعلوا من الغزل رمزا للتعبير عن الحب الإلهي وبخاصة الغزل بالمذكر.

لم يرد الشيخ الغزالي أن يفعل شيئا من ذلك وإن كان قد شارك المتصوفة بل فاق بعضهم عندما اتخذ من الخمر رمزا للحب الإلهي، فأنشأ قصائد أربعة تحمل كل واحدة منها عنوان «الخمرة الإلهية» سوف نعرض لها فيما يستقبل من صفحات حين نعرض نماذج من شعر الشيخ الجليل.

لقد طرق الشيخ الغزالي في ديوانه - هذا الذي بين أيدينا - موضوعات الشعر النظيف التي أسهم بالقول فيها الشعراء من ذوي المروءة، وتعفف عن طرق الموضوعات التي لا يجمل بأصحاب المروءات الكتابة فيها، فلم يتورط الشيخ في قول الهجاء أو المديح المغلف بالنفاق أو الغزل، وإنما طرق أبواب الحكمة والإخوانيات. والتعبير عن ذاته وسلوكه، والأخلاق بعامة ومكارم الأخلاق بخاصة، كما تناول موضوعات المتصوفة حسبما أشرنا في السطور السابقة، وعرج على الموضوعات الإنسانية التي تغزو القلوب وتهذب المشاعر، كما وصف الطبيعة في

حالاتها المختلفة فوصف الفجر والشروق والشمس والنجوم والليل والبدر، بل وصف الطبيعة الخضراء وخصنها بالمناجاة العذبة والحنين الدافق، كما أفرد للوطنيات العديد من قصائده التي قليلاً ما ترق وكثيراً ما تلتهب، وهي ترصع كثيراً من صفحات الديوان. ثم من البديهيّات قبل ذلك وبعده أن يكون للدين وشعائره نصيب وإن يكن غير وفير، وإن كان شعر مكارم الأخلاق هو الدين نفسه، وذلك مصداقاً لقول رسول الله ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ومن الحقائق الطريفة أن الشيخ الغزالي رحمه الله أطلق على ديوانه عنوان «الحياة الأولى» ولعله كان يقصد وصف حياته في المرحلة العمرية التي كتب فيها هذا الديوان وكان إذ ذاك في الفرقة الرابعة الثانوية بمعهد الإسكندرية الديني، وكانت طبعة الديوان سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦ م وهو إذ ذاك في نحو الثامنة عشرة من عمره المبارك. وهناك بع ذلك أمران طريفان، الأمر الأول أنه قدم النسخة الأولى من هذا الديوان هدية إلى محمد أفندي كوته الذي صار فيما بعد والداً لزوجته الفاضلة وجداً لأبنائه البررة، والأمر الطريف الثاني أن ثمن الديوان كان عشرين مليماً طبقاً لما هو معلن على غلافه.

تلك حقائق تتسم بالطرافة التي تبعث على رسم بسملة طليّة على شفاه القارئ الكريم.

الحياة الأولى

وضع

محمد الفخزالي

مصر - الإسكندرية - الطبعة الثانية

لغة إلى

محمد الفخزالي

١٣٥٤ - ١٩٣٦

الطبعة

المطبعة الإسلامية بالإسكندرية

محمد أحمد حمودة

الثلث عشر من مليا

صورة غلاف الديوان في طبعته الأولى والوحيدة

قبل واحد وستين عاما ميلادية

الغزالي الشاب يقدم نفسه للقراء :

نعود لكى نسأل أنفسنا عن أولى قصائد الديوان، ماذا أسماها الشيخ الشاعر؟ وماذا ضمتها من قيم ومناهج؟ لعل ذلك لا يكون من الأمور التى تحتاج إلى روية فى الاستنتاج، لأن الشيخ اختار لها عنوان «الحياة الأولى أو نحو المجد» هكذا طمأن الشيخ قارئ شعره من مجرد أن تقع عيناه على عنوان أولى قصائده، أنها سيرة ذاتية رفيعة المحتوى، بل هى منهج لسيرة ذاتية سوف يقوم الشيخ الشاب على التزامه فى مسار نقى، ومضمار نظيف، سعيًا إلى مستقبل مجيد، ومكانة رفيعة، كل ذلك القول الرصين أطلقه الشاعر وهو ابن ثمانية عشر ربيعاً.

يقول الشيخ محمد الغزالي وهو فى تلك السن المبكرة فى قصيدته «الحياة الأولى أو نحو المجد» :

ثمانى عشرة مرّت سهادا !!	أردتُ على المنام. ولن أُرادا
فكانت يقظة المضنى بنائى	كرى النوام أن يغفو اتئادا
وكانت فى سبيل المجد تسعى	تغالبه ولا تألو اطرادا
إلى أن أشرقته هدياً جليلاً	شموس الصحو فى أفقى تهادى



وأضحت للورى عندى ظلال	مقلصة الرسوم. نأت مهادا !!
عنانى ما قلوه من عظيم	تجافوه وأعيانى افتقادا
تنكر لى! ركود ليس يفتيا	يثير الصمت كى يطغى فسادا
وشر النوم ما ران انبهاماً	يضيع فى مجاهله الفؤادا

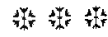
يقول الشيخ الشاب عن سنواته الثمانى عشرة الماضيات هذا القول الحكيم :

فكانت يقظة المضنى بنائى	كرى النوام أن يغفوا اتئادا
وكانت فى سبيل المجد تسعى	تغالبه ولا تألوا اطرادا
إلى أن أشرقته هدياً جليلاً	شموس الصحو فى أفقى تهادى

لله در هذا الفتى الشاب المعمم، ابن الثمانى عشرة الطالب بالمرحلة الثانوية فى معهد الإسكندرية الدينى، إنها حكم ابن الثمانين، بل هى وبعض حكم عمر الحيام فى رباعياته تتسابقان منطلقا، وتتساوقان منطقا .

إن الشيخ الغزالى يمضى فى كشف كنه السنين الثمانى عشرة وما حفلت به من جهاد وكفاح وحيرة وأمل، بل وصراع وبسالة وتقرير حاضِر واستشراف مستقبل، فيقول هذه الأبيات التى تنبئ بنيتها عن حكمتها ويفصح بيانها عن مزيد من إيضاها :

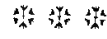
ثمانى عشرةً مرت طلابا	حشيت السَّير ما همدت نفاذا
كأنى إذ أُطلُّ على رحاب	حواها الأمس يوسعها ابتعادا
تلوح لمقلتي أعلام نفس	محيرة لنشدتها ارتيادا
يشعُّ لها وميضٌ من حياة	تحسُّ بخيمها العانى المرادا



تحسُّ بخيمها العانى شروداً	يرأودها لیسلسها القيادا
فتهزمه وتُرجعه فلولاً	كبيحات تحذره المعادا
كأن النصر خامرنى انتشاء	وقد نكبت أثقالا شدادا
وزالت عن وهيجى مظلّمات	صنعن له حجاباً أو رمادا

بعد هذا المنهج الذى رسمه الشيخ الشاب لحياته الأولى والسعى فى طيب نجد، ينظر حوله فى ترو شديد، وينفذ إلى داخل نفسه فى عمق وأناة، فيكششف أنه يعيش دنياه فريداً، وأنه يحيا وحيدا، وأن هذه الوحدة خلصته من أوشاب سوء الحياة، طوراً كفاحاً منه، وتارة تنائيا عنه، فيقول فى أبيات من قصيدته التى جعل عنوانها « دنياى » :

هي دنيای عشتُ فيها فريداً وانتأيتُ المأوى القصي عتيداً
وبحسبي في عزلتى من سمير أننى ما حييتُ أبقي وحيدا



أخلصتني من كل أوشاب سوء تبغيني منذ اقتحمتُ الوجودا
تبغيني قسراً يكفكف نارى يتمشى في جذوتيهَا خمودا
وإياساً يزجى السكون قتولاً لنشاط ما يستكين همودا
قد تناءت عني وليس انتصاراً في كفاح، بل كنت عنها صدودا

وإذ يمضى الشيخ الشاعر الشاب يعرض بقوم هوت رغباتهم بهم إلى الخضيض
فاستمرءوا الفرار بعيداً، ورضوا بالهوان قريباً، يعود إلى القول:

هي دنيای قد ضننتُ بها في مستراد وعى المطاعن سودا
وضجيج من المعانى هواء مقفر الجد مستريب جمودا

إن الشيخ الغزالي الشاب الشاعر المتحمس الساعى إلى المعالى، المستشرف
أسباب المجد، يعيش دنيا ليست كدنيا الناس، بل هي دنياه المختلفة عن دنيا
الآخرين، ذلك لأن الآخرين رضوا بالهوان وهو لم يرض، وقبلوا النقيصة ولكنه
عافها، ولذلك كان يردد القول:

هي دنيای عشتُ فيها فريداً وانتأيتُ المأوى القصي عتيداً

كانت حياته إذن شديدة القيود كثيرة السدود، وهي قيود تمرد عينيها،
وسدود نحاها عن طريقه، حمل راية الكفاح العنيد منذ صباه الأول،
ومهد سبيله في ثورة باسلة في قصيدته «عوائق» حيث يقول في عزم
وجد:

يا قيـودى تحطـمى	عند مشواك فارتمى
قـد تأبـيت ذلـة	فى تـبـارـيح أدهم
وقـردت كـلـمـا	توثقـينى بمـحـم
وترينـين بـغـيـة	للركـود المـهـدم
فإذا شئت رفـعة	كنت أغـلال مـرغم



يا قيـودى تحطـمى	عند مشواك فارتمى
إن أمـراً رغبـتـه	قد غدا غير ملزم
واحـتـبـاسـا أردتـه	لم يـتح لم يـحـتم

ولا يكتفى الشاعر الطالب بالمرحلة الثانوية بهذا التصدى، بل يحقق إنجازاً قلماً يصل إليه إلا أولو العزم والصلابة من الرجال، فيمضى فى أبياته مصوراً تحقيق فوزه بهذا القول الجميل:

فى انتـصار وأدته	بعد أن كان هازمى
فأنا الآن مطلق	لست للذل أنتـمى

والأمر العجيب فى هذه الأبيات أنها تصور عوائق وقيوداً، وثورة وتمرداً وتحقيق نصر واقتناص فوز، ومثل هذه المعانى يصوغها الشعراء فى نطاق البحور العروضية الطويلة، حتى يأخذ الشاعر براحه وارتياحه، ولكن الشيخ الغزالي فى تحدّ ربما لم يقصد إليها قصداً، يصوغها فى البحور القصيرة التى تصلح لغير هذا الغرض، فيصيب توفيقاً ربما لم يكن ليتحقق له ولا لغيره إلا من خلال ملكة سخية معطاءة، وامتلاك لخاصية القريض ونصاعة البيان.

هذا ولا يظنّ ظان أن الشيخ الصبيّ الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره قد تخلّى عن الآمال العذاب، وانصرف عن البسمات البهيجات، فقد كانت الآمال الواعدة ماثلة في صدره، والحياة الباسمة مستقرة في فؤاده، وقد عبر عن هذه المشاعر المتناغمة في قصيدة جميلة جعل لها عنواناً من جنس نسيجها وأسمائها «معاني الضاحك» يقول في مستهلّها:

أستعرض الدنيا وإنّي الأملُ أبداً لمحيّاها أنا المتفائلُ
قلبي يحدثني حديثٌ مؤكدٌ السعدُ في العيش المحبب ماثلُ
الحزنُ فيها قد نفاه لبُّها لبّ جميلُ الزهو إذ يتخايلُ !!
صدفتُ عن الأكدارِ دنيا لا تني تُزجى الضياء إذا غزاها آفلُ
خفيتُ فما الداجي السحيقُ بعاذهُ الوعرُ مجهله الذي يتشاكلُ

إن شاعرنا الشيخ الغزالي الشاب وهو يستعرض الحياة مفعماً بالآمال العريضة مشيراً إلى السعد الماثل في خاطره بل المستقر في فؤاده بعيداً عن الأسى والآلام - ينثني لكى يسجل أن للحياة بهجة ونورا، وضياء ناصعا، ورحابة باسمة فيقول:

نور الحياة وما أجل طيوفه ! يزكو برونقها البريق الحائل
وحيّ الضياء نصاعةً ورحابةً كالعرس زخرفه سرورٌ كاملُ
في الأرض مربّعها ومشتاها أرى نور المنى إن كان يأسٌ ماحلُ
والقبة الفيحاء غائمةٌ وضاً حية الصحيفة في مدى يتناولُ
جدد المعاني في الحياة قصيةً عن لغو مصنوع سناه زائلُ
عينائي شواقان حسناً يجتلي للنفس عيشاً فيه فهو الآهلُ
نهرٌ وليلات يروع جلالها فتنا ينمّقها السلامُ الشاملُ
بسماتي الحسنى وكم أرسلتها عفواً تداعب طيبها وتبادلُ

غير أن الشاعر الغزالي الشاب لا ينسى الخير وهو يشدو، ولا يبتعد عن العفاف وهو يغنى، وإنما الخير قريب إليه، والسوء بعيد عنه. إذ يقول فى القصيدة نفسها:

نفسى هواها الخيرُ، فهى غريبةٌ عن سوء ما يهوى إليه سافلُ
ناسُ تهوُّمُ فى مباءة عاصفٍ نكرُ الحياة بها مبین غائلُ

إن حب كل ما هو حلال من نعم الحياة محبوب إلى شيخنا الغزالي، محبوب إليه فى صدر الصبا طبقاً لما هو ماثل فى هذه الأبيات الهمزية التى نحن بسبيل تسجيلها، وظل الشيخ على نفس النسق من الشعور طوال حياته التى شاطرناه قدراً غير قليل منها، يحب أن يرى أنعم الله عليه فى مظهره ومسكنه، وفى حله وترحاله، وهو جانب لا يعرفه عن الشيخ إلا من هيات له المقادير أن يكون قريباً منه، معاشياً له أشطراً من الزمان. ومن ثم فإن الشيخ الغزالي يقرض الشعر ويدبج القصيد فى «بهجة الحياة» وهو العنوان الذى اختاره لمقطوعته التى تبهر القارئ موسيقاها العذبة، وتأسره تشبيهاتها الساحرة. وذلك حين يقول:

يا بهجة خلبتنى كم يراودنى للهوك العذب تزيين وإغراء
من كل ما زخرفت للعين آيته وخامر النفس فيض منه وضاء
مستعذب الشوق كالشرى يهل وفى جوانب الصدر ترحيب وإصغاء
وفى جمال محياه ذكا قبس بين الجوانح تذكو منه سيماء

ويمضى شاعرنا الشيخ الصبى الطاب فى المرحلة الثانوية الأزهرية معلنا حبه للدنيا وحسنها. ولكن فى نطق من الحسن الحلال قائلاً:

أحب هذى الدنا باللُب آخذه حسناً تصرفه فى القلب صهباء
كسا الرضا كل شىء بهجة عجباً واستلهمته طلاب الشوق سراء

الشيخ الغزالي متصوفاً :

كان ذلك جانباً من جوانب الحياة فى فجرها مع الشيخ الغزالي ، وهو كما رأينا له بالحياة صلة بل صلات : جهاد وكفاح ، وكرامة وإباء ، ومحبة وإقبال وتغنٍ وشدو ، وانبساط وابتسام ، الأمر الذى يظن معه أن نمط الحياة كاملاً هو ذلك الذى أوضحنا وضررنا له الأمثلة بنماذج من شعره .

غير أن الأمر ليس كذلك تماماً ، أو بمعنى آخر لم يكن ذلك هو الجانب الغالب فى حياة الشيخ ، سواء فى المرحلة الباكرة التى كتب فيها هذه القصائد أو بعدها فى بقية مسيرة عمره ، وإنما كان الشيخ موصول الأسباب بالأحوال الصوفية ، ونهج مناهج شعراء الصوفية فى اتخاذ الخمرة رمزاً للحب الإلهى من خلال نشوتها .

صحيح أن الصوفية عمدوا إلى اتخاذ رمزين من موضوعات الشعر عبّروا من خلالهما عن أشواقهم ووجدتهم ، هما الغزل والخمر ، وقد أثبتنا فى الصفحات الماضية نماذج من الغزل الصوفى ، وقلنا إن شيخنا الغزالي نزه نفسه عن كتابة الغزل ، ونأى بقلمه عن اتخاذ - أى الغزل - نهجاً صوفياً وطريق حبّ إلهى ، ولكنه شارك المتصوفة فى خمرياتهم التى من خلال نشوتها حاولوا الزلفى والتعبير عن الحب الإلهى .

كان سبيل المتصوفة فى اتخاذ الخمرة رمزاً ، أمراً يدعوا لتوقف غير المريد ، وتعجب غير « أبناء الطريق » فالقشيري الصوفى الشهير صاحب كتاب « الرسالة » فى التصوف يذكر أن يحيى بن معاذ الرازى كتب إلى أبى يزيد البسطامى - وكلاهما من أقطاب المتصوفة فى القرن الثالث الهجرى - : « ههنا من شرب كأساً من المحبة لم يظمأ بعدها » فيجيبه البسطامى فى كلمات قصيرة : « عجبت من ضعف حالك ، ههنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغرفاه يتزيد » .

ومن الشعر المبكر الذى قاله بعض المتصوفة فى هذا المقام قول بعضهم :

عجبتُ لمن يقولُ ذكرتُ ربى فهل أنسى فأذكرُ ما نسيتُ
شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأسٍ فما نفذ الشرابُ ولا رويتُ

ولعلنا حتى الآن لم نسمع لفظ الخمر، ولكن سمعنا مصطلح « كأس الخبة » عند يحيى بن معاذ وعند الشاعر الذى لم نعثر على اسمه، والاحتساء من بحار الكون عند البسطامى .

ولكن بمرور الأزمنة وتتابع الحقب يظهر الكأس صارخاً، وتظهر الخمر صرفاً فى شعر المتصوفة، ظهوراً قد يفوق نظيره عند شعراء الخمر المشهورين، فهذا أبو مدين التلمسانى المتصوف الذى عاش القرن السادس الهجرى (المتوفى ٥٩٤) يقول متخذاً من الخمر رمزاً صوفياً :

أدريها لنا صرفاً ودع مزجها عنا فنحن أناس لا نرى المزج مذكنا
وغن لنا فالوقت قد طاب باسمها لأننا إليها قد رحلنا بها عنا
عرفنا بها كل الوجود ولم نزل إلى أن بها كل المعارف أنكرنا
هى الخمر لم تُعرف بكرم يخصها ولم يجعلها راح ولم تعرف الدنا
مشعشة يكسو الوجوه جمالها وفى كل شيء من لطافتها معنى
حضرنا فغيبنا عند دور كنوسها وعُدنا كأننا لا حضرنا ولا غيبنا
وأبدت لنا فى كل شيء إشارة وما احتجبت إلا بأنفسنا عنا
ولم تُطق الأفهام تعبير كنهها ولكنها لاذت باللطافها الحسنى

ولقد أغرم سلطان العاشقين عمر بن الفارض بالخمرة رمزاً، وبالكأس والدنان
وسيلة وطريقاً، فأكثر من القول في ذلك، وأضفى عليها صنوفاً من القداسة وفنونا
من النزاهة، وألواناً من الأزلية، ولعل ميميته المشهورة شاهد عدل على هذا
المذهب. يقول عمر:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يديرها هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجت نجمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ
ولم يبق منها الدهرُ غير حشاشةٍ كأنّ خفاها في صدور النهي كتمُ

ويغلو عمر بن الفارض في خلع صفات التمجيد على خمرة التي تسكر أبناء
الحى دون أن يقتربوا إثمًا، أو أن يرتكبوا جرماً، أو يصيبهم عار فيقول:

فإن ذكرت في الحى أصبح أهله نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
ومن بين أحشاء الدنان تصاعدت ولم يبق منها في الحقيقة إلا اسمُ

ويزداد ابن الفارض غلوًا في خلع أصناف من المحاسن على الخمر، بحيث
تشكل منها معجزات طيبة وأخلاقية وروحانية لعله غير مسبوق في ابتكار هذه
الشمائل التي خلّعها على خمرة، التي لا شك أنها ليست كخمر القصاص
العابثين ولكنها خمر العشاق العابدين. يقول ابن الفارض:

ولو عبقت في الشرق أنفاسٌ طيبها وفي الغرب مزكومٌ لعاد له الشمُ
ولو خضبت من كأسها كفٌ لامسٍ لما ضلّ في ليلٍ وفي يده النجمُ
ولو جليت سرّاً على أكمه غداً بصيراً ومن راووقها تسمع الصمُ
ولو أن ركباً يمموا تربّ أرضها وفي الركب ملسوعٌ لما ضره السمُ
ولو رسم الرأقى حروف اسمها على جبين مصابٍ جنّ أبرأه الرسمُ

تُهَذَّبُ أَخْلَاقُ النَّدَامَى فِيهِتْدَى بِهَا لَطَرِيقُ الْعِزْمِ مِنْ لَا لَهُ عِزْمٌ
وَيُكْرِمُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجُودَ كَفُّهُ وَيَحْلُمُ عِنْدَ الْغَيْظِ مِنْ لَا لَهُ حِلْمٌ
وَلَوْ نَالَ قَدَمُ الْقَوْمِ لَثَمَ قَدَامُهَا لِأَكْسَبِهِ مَعْنَى شَمَائِلِهَا اللَّثَمُ

وبعد أربعة قرون من الزمان يجيء عبد الغنى النابلسي المتوفى ١١٤٣هـ، وهو من الصوفية الذين غمروا أنفسهم بأفانين الرمز الخمرى، تأسيًا بخمريات عمر بن الفارض ومن جاء بعده من الناسجين على منواله، بل المتجاوزين غلوّه وإفراطه، بحيث إن ما أنشأه النابلسي فى الخمر لا يحسب - عند القارئ المعتدل - من الصوفية فى شىء، لأنه ذكر ألفاظ السكر والعريضة والدير والشماس وما إلى ذلك مما يؤدى إلى مفهوم آثار الخمر المحرمة:

أَطْلُقَ الْكَأْسَ بَعْدَ طُولِ احْتِبَاسٍ وَاسْقِنِيهَا مَا بَيْنَ وَرْدٍ وَآسٍ
شَرِبَ الْكَوْنُ فَهُوَ سَكْرَانٌ مِنْهَا وَتَرَاهُ مُعْرَبِدًا بِالنَّاسِ
يَا نَدَامَايَ مَا عَلَى شَارِبِيهَا إِنْ أَبَاحُوا بِسَرِّهَا مِنْ بَاسٍ
مَلَأَتْهُمْ وَالْآنَ تَقْطُرُ مِنْهُمْ بِقِيَاسٍ لَهُمْ وَغَيْرِ قِيَاسٍ
لَمْ تَدَعْ فَضْلَهُ بِهِمْ لَسَوَاهَا طَهَّرْتَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأَنْجَاسِ
فَلِيهِمْ مَوَابِلُ فَلْتَهُمْ هِيَ عَنْهُمْ وَاحْرَسُوها يَا جُمْلَةَ الْحَرَّاسِ
فَتَحُوا بَابَ دِيرِهَا فَشَمَمْنَا نَفْحَةَ السُّكْرِ مِنْ فَمِ الشَّمَّاسِ

ومن كبار المتصوفة الذين تغنوا بالخمر واتخاذ شفافيتها سبيلا إلى الحب الإلهى، القطب عمر اليافى ١١٧٣ - ١٢٣٣ هـ. لقد طرق القطب اليافى أبواب الرموز الصوفية غزلا وخمرا، ولكنه لم يسرف على نفسه غلوًّا كما أسرف غيره ممن ذكرنا نماذج لهم وممن لم نذكر، وإنما كانت شفافيته «وطريقته» الخلوتية تحول بينه وبين الغلو، وتكبح جماح الإسراف فى نفسه إذا ما رغبت نفسه فى ذلك:

يقول القطب الياقنى :

أدر خمرة الأسرار فى الحان يا سعدُ وغنّ لنا فالوقت طاب . لك السعدُ
وكررْ على سمعى أحاديث وصفها ففيها شفاء القلب يا سعدُ . يا سعدُ
وهيم ودمدم يا بن ودّى مزمزما بذكر إله العرش فهو لنا القصدُ
وخلّ عدول الحب فى تيه غيه عليه يدور السوء والبعدُ والطرْدُ
فنحن نرى فرط التهتك مذهباً ونرشفُ وردَ القرب يا حبذا الوردُ
ونزهو إذا غنى المغنون باسمها ولا نرعوى عنها ، ولو ضمنا للحدُ
رعى الله أوقات الصبابة إنها شفت مهجتي . والقلب ما مسّه ضدُ
ليالى أنس فى معاهد زينب وليلى وسعدى ، والغرام له وقدُ
تروق راحاً فى ظلال خيامها معشقة . فالمطربون لها تشدو
على سرر مرفوعة ونمازق وريح الصبا بالنشر فى حيها تعدو
هنالك قد طبنا وطابت نفوسنا وغبنا عن الأكوان لما دنا الوجدُ
فقل لأناس عاذلين : ترفّقوا بنا ، إنا من دأبنا الصدق والودُ
وصل وسلم سيدي كل لحظة على المصطفى المختار ما سبّح الرعدُ

لعل هذا النون من شعر الخمرة الصوفية الذى جادت به قريحة عمر الياقنى أقل تبرجاً من النماذج السابقة، وهو فى الحق أدنى إلى الأدب، وأبعد عن اللغو. وأقرب إلى الروح الصوفية الشفافة الجديرة بالشدو - ولو من خلال الخمر - بلحب الإلهى . هذا فضلاً عن تتويج الشاعر لقصيدته بالصلاة والسلام على خير الخلق وسيد البشر .

فإذا كان السياق متعلقاً بالشاعر الشاب الشيخ محمد الغزالى . فإننا نجد فى ديوانه - هذا الذى بين أيدينا - أربع قصائد ، كل واحدة منها تحمل عنوان « الخمرة الإنهية » ولكنها أكثر أدباً من قصائد الآخرين . وأوفر حرصاً على لائمه . وأنشط

إقبالاً على تصوير الوجد الصوفي مبراً من الانغماس في أسرار الرمز، ميزها عن الإفراط في استعمال مصطلحات الخمر المحرمة، تلك المصطلحات التي قرأناها عند غيره من الشعراء في النماذج التي تمثلنا بها في الصفحات القريبة الماضية. فالكأس التي يشرب منه الغزالي الشاب المتصوف فيها «بسمة نور»، وهي مصعدات إلى حمى الله.

يقول الشيخ الغزالي في «الخمرة الإلهية» في قصيدته الأولى في وصف كأسه:

ضحوكُ إلى الشربِ الصفيِّ وهيجُها ففي بسماتِ الكأسِ بسمةُ نور
عذابُ شهياتِ التحسِّي كما نأ سرارُ وجودِ الروحِ ذوبُ فمير
دُفوقُ المعاني مُصعداتٌ إلى الحمى حمى الله مضواءً كفيضِ ذُرور

ويعمد الشيخ الغزالي إلى مناجاة الكأس وما حوت من خمر يستحيل إلا أن تكون طهوراً، ومن ثم فهي الكمال المستفيض الذي تسعد الروح العامرة من سناه فيقول:

حماك، وهل يسمو إلى السدة التي علاها الجلالُ الطلقُ غيرُ طهور؟
حماك وهل يهوى بعيد انفساحه مصرعُ أقيادٍ ذليلٍ مرير؟
فأنت الكمالُ المستفيض بداعة فيا سعد روح من سناه عمير!!



ويمضي الشيخ الغزالي المتصوف مفتوناً بكأس الخمر الإلهية، متعجباً من الطمأنينة والوداعة والأمن التي تبعثها في النفس قائلاً:

فأى كئوسٍ غولها للدنى التي ترعُ بؤساها وأى خمور...؟
ويا عجباً كم من طمأنينة بها وداعةُ إيمانٍ وأمنٌ قدير...؟
نماها الجنبُ المستعزُّ شموخه حواشي ركابٍ بالضياء منير

وفى القصيدة الثانية التى تحمل العنوان نفسه الذى أطلقه اشاعر على خمريته «الإلهية» الأولى، ينغمس الشاعر فى الشفافية الصوفية الآمنة، فما أن يشعر أن حياته تقطع شوطاً ما مجفلة عن الله بعيدة عن المنهج الأسمى حتى يشرب من الكئوس المخوفة بالأمن والهدى، هذا وإن الخمر التى حوتها تلك الكئوس متناهية الصفاء كمالاتها، ينفى السوء جناها وشهدها، ويتوسل الشيخ الصوفى الشاب الشاعر إلى الكئوس وما حوت من خمر تنهى صفاؤها أن تعيده - وقد مسته سحابة ضلال حارقة - إلى الله بأن تغتال الصحو الزائف، وترده إلى عالم الحب والصفاء فيقول:

غريباً أرى نفسى فأجفلُ إذ هوتْ حياتى يغزوها عن الله بُعْدُهَا
ورُبُّ كئوس حَفَّها الأمنُ والهدى شربتُ فما أسمى الذى ردَّ مجْدُهَا
خمر تنهى فى الكمال صفاؤها نفى السوء معناها إذا اشتير شهدها



أعيدى طريد القرب من شرّ ضلّة رمته بعمياء تسعّر وقْدُهَا
لطال غرورٌ كان يزجى خُداعه! بنفسى فمن وترٍ قد احتاج حَقْدُهَا
إلى الله! واغتالى من الصحو زائفا كذوب حياة خاب فى السعى وردّها

ويقرب الشيخ من ملامح الخمر كما يصفها الدنيويون بقدر ضئيل حين يصفها بأنها معتقة الآماد، ثم ينثنى سريعاً فينغمس فى خمر الصفاء الطاهرة التى طاب خلدها، وزكى رحيقها، مباركة بنور الله أو هكذا أراد فيقول:

مُعْتَقَةُ الآماد فهى قديمة مع الله ما أزكى! وقد طاب خُلْدُهَا
له المجدُ جباراً إذا كان بؤْسُهَا له المجدُ رحماناً إذا كان سعدُهَا
سكبت على كل الحياة ملامحها تلوح بنور الله إذ كان فردّها

وفى قصيدة «الخمرة الإلهية» الثالثة يتحول الشاب محمد الغزالي الذى لم يكن قد بلغ العشرين من عمره المبارك المعطاء إلى حالة من الوجد الصوفى شبه الكامل، أقول شبه الكامل لأنه ظل ممسكا بحبل الوسطية الصوفية، لم يغل فى معنى، ولم يتصرف فى تعبير، وإنما هو بالقدر الذى يعب فيه من خمر نشوة الروح، بقدر ما تنكشف له أسرار للكون كانت خافية عيه، منيعة فى الوصول إليها؛ ولا ينسى الشاعر أن يقتبس من البلاغة القرآنية فى البيت الأخير من هذه الفقرة حين شبه بهجة النشوان بالسراب فى القبيعة مهتديا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ ماءً﴾ يقول الشاعر الشاب الصوفى محمد الغزالي:

كلما زدتُ احتسَاءً زادنى طيبَ رباها نفاساتٍ وديعة
وحبتنى كشفُ أسرارٍ لى خافيات الكون تلقاها منيعة



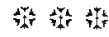
جرعةُ الإلهام والقرب وما فى جلال الله من حُسنى بديعة
وشعاعُ الهدى فى الأكواب ومن خامرته ومضةُ الملح سريعة
اغتدى نشوان لا يلوى على بهجة كالآل وضاحاً بقيعة

ويبلغ الشيخ الغزالي المتصوف غاية الإبداع فى قصيدته الرابعة «الخمرة الإلهية» وقد تحدى - بغير قصد منه - شعراء المتصوفة الخمريين معنى ومبنى - وحساً وجرساً، وفناءً ووجداً، وتحريراً وتعبيراً، لالتزامه بالوسطية الصوفية وانصرافه عن «العريضة» والغلو حين يقول:

جنى الخمور ما يبغى شهياً جناهُ من طلا الرحمن كأساً
جوارحُ حف عليها كل شيء فمن يسمو إليه طاب نفساً



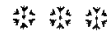
كيانى فى وضوح العلم نور كما الأكوان فى الإدراك شمسا
فلن ألقى الجهول وقد علانى ولن آلوه إشهادا محسا
هواتف باسمه ينبئن عنه وكنت حسبتها من قبل خرسا
عرانى من معانيها قرار شعورى إن عداه صار بخسا



الدين ومكارم الأخلاق :

أما وقد سلكت الشاعر الشاب نفسه فى قافلة المتصوفة بصوت عال وحبل متين،
فلا بأس عليه إذا ما باح باستمساكه بديده، وأعلن حرصه على الالتزام بشعائر
العبادة، وإذا كانت الصلاة مخ العباداة، فكان من العفويات أن يكون للصلاة
نصيب فى شعره فى قصيدة نورانية مباركة يصف فيها وقفة المصلى بين يدي الله
وصفا يغوص فيه إلى أعماق النفس المؤمنة، ويقف الشاعر عند طهارة المصلى وقفة
تأمل واستغراق، وتمنى أن يكون العمر كله صلاة فيقول:

تلكم الوقفة ما أجملها ! فى حُفول بالمعاني الذاخرة
تلكم الوقفة فيها متعة من جلال الفترات الطاهرة



فالطويّات الخفيّات إلى صمتها البارع تُلقى سافره
مُسلّسات القيد قد أسلمها مبهمُ الأنفس أولى آخرة



فترات الطهر ما أجملها... ! حين تبدو فى الدهول الذاكره
فلو ان العمر منها كله ما درى التشريد حتى البادره

وإذا كان المرء يناجى ربه فى الصلاة، فإن الشيخ الغزالى يضيف إلى مناجاة خالقه فى الصلاة، مناجاة الصلاة نفسها، لأن الصلاة هى التى أوصلته إلى مناجاة خالقه، وفى الصلاة تكبير وقرآن ودعاء وركوع وسجود، وليس فى متع العبادات ما هو أجمل من السجود لله ومناجاته فيها وتوحيده بعدها، إنه لا يحس بتلك المتعة الربانية إلا من مارس الصلاة وعقلها، وقد كان الشيخ الغزالى من هذا الفريق الذى يمتع قلبه وعقله وخاطره بالصلاة وأركانها ومفرداتها، ولذلك نراه يناجى صلاته على هذا النحو النورانى فيقول:

واصلاتى حينما يرفعننى من حدود للحياة الظاهرة
واصلاتى بكنوز النور أن يقطع الجسم الأثيم الأصره



مذكراتى أبدا بالصحو إن غام أفقى فتعالت باهره
كالخصانات تقينى سوء ما يبتغينى من دنيا قاسره..

ويطرق شاعرنا موضوعا يجمع بين الجذ والطرافة، وبين الدين والأخلاق، إنه الدين والفضيلة، أو «الفضيلة والدين» طبقا لترتيب الشاعر نفسه فى تقديم لفظ الفضيلة على لفظ الدين، ومن المعروف أن الدين يدعو إلى الفضائل، والفضائل ثمرة من ثمار الدين، وبغير ممارسة الفضائل لا يكون التدين كاملا. إن هذا المعنى هو الذى قصد إليه الشيخ الغزالى فى أبياته التى تحمل عنوان «الفضيلة والدين» وإن كان قد صاغها فى قالب تحليلى تطبيقى وإطار توجيهى نفسى. إن شيخنا الشاب يسوغ الرابطة بين الفضيلة والدين على هذا النحو:

لم يك الدين عصمتى فى عزوفى عن حقير من الأمور مُعاف
إن داعى الفضائل نفسٌ هو فيها الطلابُ حتى توافى
ليس إحاؤه الكمال بعلمٍ لجهول به يريد الشافى
هى نفسى الحادى الذى أرتضيه وبنفسى الوردُ الجميل الصافى

واحرب دائمه دائبه بين الخير والشر، الخير ممثلاً في ملائكته، والشر ممثلاً في جنوده، والشيخ الغزالي عاش مناصراً للملائكة الخير بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، محارباً جنود الشر الذين يصدون الناس عن ذكر الله ويحسنون الشر ويشجعون على اقترافه، ويقبحون الخير ويدعون إلى الانصراف عن فعله. لقد عاش الشيخ شبابه وكنهولته وشيخوخته محتضناً فعل الخير، ومن ثم وقر في خاطره حب الملائكة فناداهم وناجاهم في قصيدته التي جعل عنوانها «ملائك الخير» وكان ذلك في زمن مبكر من حياته طبقاً لما هو واضح في صوغ الأبيات وأسوبها:

ملائك الخير لا تنسينني أبداً لا زال فيضُ نداك الجزلُ لي مدداً
وفي غصون هجوم الشرِّ فاضطهدى جنوده السود ما إن زال منعقداً
وعكّرى نصره بالنهض وسوسةً وبالضمير مثاراً إن يكن خلداً
هديلك الطهر جل الهدى نبرته لا زال متسق النغمات مطرداً

ويستنهض الشاعر ملائكة الخير لتأخذ بيد اليأس وتسلمه إلى الأمل الذي يملأ حياته، وتساعد الضال وتنتشله من غوايته، وتصل به إلى مرافئ الهداية وشواطئ اليقين، وفي ذلك يقول:

ملائك الخير كم لليأس من غلب إذا الشقى تمادى غيّه عدداً
ولم يجد أملاً يرضى لعثرته إقالة فتهاوى حيثما ورداً
فأنهضيه ليرجو عند كبوته مواطن الخير يسعى نحوها صعداً
ملائك الخير فاهديه إلى رشد رأى المآب ذلولاً فانبرى سهداً
إذا تناهى ضلالٌ في غوايته فعجلى الحسم والإيقاع ما وجدوا
ملائك الخير لا آلوكم مستمعاً ولست آلوكم حتى النصر مجتهداً

ومثلما احتفل الشاعر بملائكة الخير واستدعاهم، فقد شغته خطيئات الناس، يرتكبونها في طيش، ويعاقرونها في نهم. ويقدمون على ممارستها في سقوط، إنها

طبقاً لما يصفها الشاعر الشاب هواجس شر تحولت إلى خطر كاسح، وسقوط عميق. يقول الشيخ الغزالي في قصيدته التي جعل عنوانها «الخطيئة»:

هواجسُ الشرِّ أضحتْ وطأةً عظُمتْ ثم استحالتْ غلاباً بينَ الخطرِ
في فترةٍ همدتْ في النفسِ عصمتُها فراضها فعنتْ إصغاءَ مؤتمرِ
وسطوةِ الشرِّ إن تلقى مهادنةً تستل ماضيةً في غير ما حذرِ

وفي مجموعة من الصيغ الرفيعة المعنى الرقيقة الأسلوب يغوص الشاعر بوجدانه لكي يحلل مواقف الخطيئة ويقبحها، ويجلّي شرور الإقدام عنيتها بحكمة قريبة من فطنة الشيوخ. بحيث إن من يقرأ هذا الشعر ولا يعرف أن الشيخ الغزالي قاله ولما يبلغ العشرين، ينصرف خاطره على التو إلى أن هذا الذي يقرأه عطاء شيخ علامة. شبع اعترافاً من العلم الديني، وفيض قريحة شاعر محصته التجارب وحركته السنون الضوال. يقول الشيخ شاباً مستكملاً تقبيح الخطيئة:

وللسقوط سويعاتٌ تطيشُ لها عواطفٌ طالما ضجّت لدى النذرِ
وفي طباع الأناسي ما يُزيّنُها شوهاً قائمة. يا خفة البشر!
ساعُ الخطيئة في مربدٍ عسرتها تجوزها الروح في لب من الغيرِ
يستمرئُ الجسدُ المنهومُ ما حلّيت مظاهراً قد حوت من كل ذي قدرِ
فإن ثويت فليل الإثم مطردٌ وإن خرجت فلا يقربك من وضرِ

حكمة وتأملات :

عرفت الشيخ الغزالي طوال رحلة حياته حكيماً عاقلاً متأنياً متأملاً في الكون والحياة، ولم تكن هذه الصفات قاصرة على المراحل المتوسطة والأخيرة من حياته المباركة، ولكنها لازمتة ورافقتة منذ صغره، كان حكيماً وهو دون التاسعة عشرة، وكان عميق التأمل ولما يكمل عقدين من سنيه :

يكتب الشيخ الغزالي قصيدته « النفس والكون » فيكتب لها مقدمة قصيرة في سطرين اثنين يغنيان عن صفحتين توطئة وتقديما، يقول فيهما: « بين النفس والكون علاقة، فكأن عناصرها أخذت من كل آياته معانيها وترجمت في إحساسها به غوامضه » ثم ينطلق بعد ذلك مفصلا هذه المعاني في قصيدته التي صاغها على هذا النحو العميق والفكر البديع:

من مديد الفضاء دقّ عن الفهم — وضوحا أو إدراك نهائية
وابهام الآفاق عمقا بعيدا — ما أحاطت به وهوم دراية
صاغت القدرة الصنّاع نفوسا — مبدعات فهنّ في الكون آية



نحن أصداء ما حوى من معانٍ — حافلات بالسعد أو بالشكايه
تكفهر الأجواء والنفس — ضلّالا وتستنير هدايه
والجديد النضير بعد الـ — بلى الهش معانٍ للهدم أو للبناءيه
ردّدتها الأرواح ثم أفاضت — ما أحسّت به على الكون غايه
عاكسات نفس الشعور قويا — أو ضئيل المرمى قصي الزرايه
نحن في الكون كاخلاصة جم — عنا شتيتا من مستدقّ العنايه

إن الشاعر يفسر في وضوح وحكمة وعميق تأمل، صلة النفس بالكون، ثم ينشئ أخيرا ليُجملها في هذا البيت النفيس:

نحن في الكون كاخلاصة جم — عنا شتيتا من مستدقّ العنايه

ويشغل التفكير في الكون حيزاً من هموم الشاعر، وبخاصة ذلك الغموض الذي لم يكن تكشف شيء منه إبان كتابة هذا الديوان، ولكن لم يغفل الشاعر عن استشراف المستقبل فينشئ هذه الأبيات التي جعل عنوانها « جهالة » وفيها يقول:

أنت يا كون بالغموض محوطٌ في جميع الأنحاء أسدافٌ غيب
سرمدى النقاب لا كنه بادٍ من طواياك للوضوح ملبى
أين علم الإنسان؟ لم يجر الأرزاق قصورا بل فى عناء المكب
تلكم الذرة الضئيلة فى الكون فسيحاً نوراً بأعماء لجب
خفى الأمس أمس بدء وجودٍ مخرس السر شامل الصمت صعب
والغد المنتحى قصى انتهاءٍ للختام المرقوب فى كل حجب

وكان الشيخ الغزالي يعيش فى النور حياته، وينأى بها أن تكون فى ظلام. سواء
أكان النور حسياً أم معنوياً، وسواء أكان الظلام ملموساً أم متصوراً، كان رحمه الله
يحب النور فى مختلف صورته: نور الإيمان، نور الحقيقة، نور البصيرة، نور العدالة
حتى نور الصباح ونور الشمعة، ومن ثم فقد عبر عن ضميره أوضح تعبير حين
خاطب «نور الحقيقة» بهذه الأبيات، مستمسكاً به متشبثاً بضياءه إلا فى حالة
واحدة ذكرها فى بيته الأخير:

أيها النور أنت تلقى وضوحاً لأناس عاشوا بأبشع سر
لا يطيقون فى الحقيقة عيشاً فضياء الحقيقة الغمر يزرى
حشرات فى نورها الحق تفنى مثل قتل الشعاع كل مضر
ولهذا، الظلام خير من النور إذا كنت لا ترى وجهه حر

ومن أكثر القصائد أو المقطوعات التى تجمع بين الطرافة والحكمة، وبين النظرة
الواضحة والتأمل العميق، موضوع الشيخوخة، ولعل مبعث الطرافة فى ذلك هو أن
الشيخ الغزالي يتناول هذا الموضوع وهو فى أواخر العقد الثانى من عمره؛ أى لم
يكن قد بلغ سن العشرين بعد، فكأنه تقمص شخصية شيخ يعيش التجربة بكل
أبعادها، يكابد متاعبها ويشقى بأثقالها فيقول:

برزخ بين حياة وممات فيه من كل رسوم وسمات
بين ضعف وقوى حفهما قاصر اليأس وحلو الأمنيات
قرب الشيخ إلى حيث أنى عالم قد أدرجته الظلمات
كل أسباب الحياة اجتمعت غير نذر لتولى هاربات



ليس يهوى من شاهقه نحو وادى الموت إلا دركات
ليحول الحب يأساً من طلاب ويحول الشوق عجزاً من ثبات
ونذير الضعف يبدو كلما قرب المرء ويبدأ للفتوات

وللحقيقة والإنصاف فإن هذا الديوان ملىء بنماذج من شعر الحكمة، مترع بقصائد التأملات، وكل من الحكمة والتأملات تكاد توشى صفحات الديوان من أوله إلى آخره مما يجعلنا نكتفى بهذا القدر من النماذج، مضافاً إليها قصيدة «الخصاد» وهى طراز من الشعر المحكم الحلقات الموسوم بالأناقة والجزالة، مع رقى الفكرة ودقة الإيقاع مما يجعلها متميزة عن غيرها فى هذا السياق، لأن القارئ قد يحس فى غيرها ببعض الزخافات والعلل والإقواء هنا وهناك. وهى ظاهرة تحدث فى شعر الناشئين، وتغتفر للواعدين منهم، الأمر الذى لا يفرغ قارئاً واعياً، أو يزعج متابعاً مستنيراً.

فإذا عدنا إلى قصيدة «الخصاد» وجدنا أنفسنا نستمتع بسيمفونية جميلة، لحمتها الحكمة وسداها الإيقاع؛ لأن الشاعر كأنما حضر عيد الخصاد فى قريته، وفرح مع الحاصدين، وغنى مع المنشدين، وذاق لذة طعم الثمرة اليانعة واستمتع بخير الحبة الناضجة. يقول «الشيخ» الشاب الشاعر:

لليوم ما غرسوا قدماً وما اجتهدوا! وبورك الغرس فى أعقابه حصداً
وبورك الزهر لم يكذب وقد بسمت تُرجى الأمانى نوراً سوقه النضداً
هذا جنى البدء فى داني سنابله للنصر ما عملوا والصدق ما وعدوا
هما الغذاءان من روح ومن جسد نعم الغذاءان يلقي الروح والجسد

الماء والنور والفلاحُ قد صنعوا عقداً من الثمر المنظوم يطرّد!
قد أبرزوه كئوساً بالجنى حفلت ونمقوه جلالاً حيثما احتشدوا
وأنت عطاءً جديلاً كلما ارتقبوا!! ثمارها الجودُ في كلّ الذى وجدوا



أحزان وأشجان :

كان للشيخ الغزالي شقيقة طفلة، أصابها المرض ولا تملك التعبير عن آلامها، وكانت يانعة كالزهرة الباسمة، ناعمة كالوردة الفضة داعبها النسيم، كان الشيخ الغزالي يحب شقيقته طفولتها وبراءتها، فتألم لألمها وأشفق عليها وعلى نفسه من شكايتها فصور هذه الآلام، بل صور أخته الطفلة في حالاتها المتقلبة في قصيدة اختار لها عنواناً معبراً هو «الألم الضالّ في مرض الطفولة» شحنها بكل ما عرى نفسه من هواجس وآلام وتوجّع. يقول فيها:

أول ما تدّرين من أكرارها؟! أول ما تلقين من أوضارها
تأوهت يا أختي الصغيرة آهة ألا إن من صدرى توقّد نارها
فزعت إذ الداء الأليم توحشت مخالبه تجتث نضر افترارها
وفجعت في نفس برىء مراحها تداعبنى إن تدنّ أو فى ازورارها
فألمس دنيا عالم الطهر مرسلاً سجية أبرار زكت لم تدارها!

وما إن يفرغ «الشيخ» الشاب من تصوير الآلام المبرحة التى نكابدتها أخته الصغيرة، حتى ينصرف إلى مناجاتها فى قبائل من المعانى الإنسانية العميقة التعبير بالحنان، المترعة بالألم الزاخرة بالبكاء قائلاً:

أنيك يا أختي الصغيرة مقبضى أنين كهول فى تدانى سرارها
علقت بصدر الأم تبغين نجوة وليس سوى وجد حوى الصدر كارها
تحرّكت فى المهد الصغير كأنما تذودين سوءى من جحيم ديارها
بكيّت عميق الحزن جدّ موجع وبت كئيب النفس نائى اصطبارها

وتذوى الزهرة الجميلة، وتصعد روحها الصاهرة إلى الرفيق الأعلى، وتنتظم عالم الأبرار مع رفاقها ورفيقاتها في دار الخلود ورحاب الرحمت، فيستبد الحزن بالشقيق الشاب الذى افتقد جوهر حبه ومصدر أنسه المتمثل فى الزهرة الجميلة الآفة، ويجف الدمع فى عينيه، بل يجف القلم فى يده فلا يملك أن يرثيها إلا بأبيات قليلة ضمَّنها تباريح حزنه ونبرات أساه جعل عنوانها «سقطت ولما تنضج» قال فيها:

العبثُ الموفورُ فى هزلها حوى الهدوء وحوى الفضيله
تخطمت كئوسُ صافى الضيا فرقة الأعين حسرى كليله
كلا كما طريدُ زاكى النماء وعذب هذى الحياة الجميله
لم يسعدا بعد بالنضوج بل ماتت الرنة الضئيله

ويبدو أن فجيعة الغزالي الشاب ابن الثمانية عشر ربيعا أو أقل من ذلك كانت ثقيلة الوقع على نفسه وحسَّه ووجدناته ومشاعره قد جعلته يفكر لا فى موت شقيقته الطفلة وحدها، بل يفكر فى موت الأطفال وكنهه وحكمته، ويكتب قصيدة يجعل عنوانها «موت الأطفال» ويكتب مقدمة نثرية لأبياته تحمل أفكارا تمت بصلة ما إلى فكر أبى العلاء المعرى، هذا نصها:

«سواء أخفيت أم وضحت حكمة الإرادة فى إيجاد طفل
تعذبه ثم تهلكه فمما لا ريب فيه أن هذا الكائن ضحية
وأنه روح طرق عالم الحياة الحسنية عابرا»

إنها كلمات تبدو غريبة عن فكر الشيخ الغزالي ونهجه، ولكن ينبغى ألا ننسى أن الشيخ الغزالي آنذاك كان الشاب محمد الغزالي الطالب فى معهد الإسكندرية الثانوى، وأن فكره آنذاك لم يكن من عمق الفهم لحقيقة الموت مثلما هو فى الشيخ الغزالي الكبير، شاب رزى فى شقيقته الطفلة الجميلة البريئة التى كانت فيما يبدو تحتل كل ركن فى قلبه احتلالا ملك عليه كل شىء فى تفكيره، فدم ير أمامه من شىء إلا مصيبتة فى وفاتها.

يقول الشاب محمد الغزالي في قصيدته «موت الأطفال» بعد المقدمة الغريبة التي سطرها مقدما بها أبياته :

يا بنى الموت الألى عـشـن له فـانقضى عـمرٌ وعى الدنيا سدى
وانطوى لم يدر إلا عـابـراً هذه الدنيا كأن ما وجدا
قد ذهبتم فى ضحايا حكمة ليت شعري هل ذهبتم سعدا
يا فتاتى حلوا أطيافك يأتى كما قد حفه صفو الندى
ضاحكات اللهو يهزم من النهى فى اكتئاب منه فى النفس صدى



عُدت من حيث أتيت طفلة وطن الأبرار يلقاك غدا
أو هل يحسب فى هذى الحياة روح صدق لم يدنس جسدا

ومثلما كان لمحمد الغزالي الشاب أحزان عميقة دافقة عبر عنها فى شكايات ورثائيات. فقد كان له كذلك أشجان لصيقة. والأشجان أقل ثقلا وأخف أثرا على النفس من الأحزان، ولكن فى حالات ذوى القربى الأقربين ربما تساوت مشاعر الأشجان مع جراحات الأحزان، فمن النماذج التى تجلت فيها أشجان الشاعر وافر الحس متزاحمة المشاعر قصيدته «الشيخ الباكي». إن النبرات الحميمة التى تجلت فى هذه القصيدة تشي بأنها قيلت فى واحد من أقرب الأقربين إلى الشيخ الغزالي، ربما كان الجد - فيما لو كان على قيد الحياة آنذاك - أو الأب أو العم أو الخال، ذلك لأن القصيدة مترعة بمجموعة من العواطف الآسرة التى لا تتجمع فى فؤاد امرئ بعيد الصلة بمن أنشئت القصيدة فى شأنه :

محت عبرات الشيخ كل الذى رأت عيون الصبا البسام فى الأعصر الغبر
فتلك تجاعيد الإياس التى بدت تكلل خديّه اندحاراً على دحر
يخط مسيل الدمع فيها جوانحاً تذبذب فيها اليأس فى الألم المر

هكذا بكى الشيخ الكبير مصدر الإشفاق ومنبع الشجن ودليل ذلك مسيل
الدمع الذى خط أحزانا فى قسّمات وحنّتيه، ويرمى الشجن بثقله على الشاب
محمد الغزالي لأنه من أقرب ذوى الأرحام إليه. فيتمنى أن يتوقف الدمع ويكف
الشيخ عن البكاء، وفى ذلك يقول شاعرنا الشاب راجيا بل متمنياً:

ألا ليت هذا الشيخ لم يبك إننى أحس لهيباً فى فؤادى من النكر
حصادُ سنين قوّضتْ جُلَّ عمره شقاءُ معنّى أعقب الوصل بالهجر
أراه وقد حانت لتمزيق عمره قواطعُ تدنيه سريعاً من القبر
أهاب به عجز فلم يستطع ونى كغير رضوخ الضعف نأياً عن النصر
وحالت حياة النور فى نفسه دُجى يزهد فى فيها زهادة مُضطّر

ومن أعمق ما أبدع الشاعر الشاب شجناً تلك القصيدة التى كتبها فى كفاح
أبيه، وجعل لها عنواناً مترعاً بالإشفاق، إن عنوان قصيدته فى أبيه هو « طريد »
والطريد يكون دائم الركض دائم السعى. ولم يكن ركض أبيه فراراً من أحد، ولا
دأبه هدفاً غير كريم، ولكن كان الركض الدائم والسعى الدائب يستهدفان أكرم
مسعى، وأنبل هدف، وهما السعى فى الحياة لتلبية أسباب العيش الكريم للأسرة
مثلة فى زوجة فضلى، وأبناء نجباء، وما القصيدة فهى تقدم نفسها على هذا
النحو الفريد:

تقسّمه الإجهادُ فهو مثقلٌ ينوءُ بأعباء المعاش متعباً
مدى العمر لا يلقى سلاحاً بكفه فطوراً أخا حرب وطوراً تأهباً
يظلُّ بحومات الجهاد مكافحاً فسبان فى أيامه الشيب والصبا
طريدٌ من الإسعاد فالدهر خلفه دءوبٌ ولن يألُو هوى العيش مأرباً
كأن من الكون المدار حراكه فليس بوقافٍ وليس مُغلباً
الدّان موصولاً الغلاب فحيثما ترى غالباً فالنصر قد نال غاصباً
فبوركت من عمر تضاعف سعيه وبورك من فلد وبورك يا أبا



فضائل وشمائل :

عرف الناس الشيخ الغزالي كواحد من أعظم الدعاة إلى الله على بصيرة غزير العلم، عظيم الحلم، فصيح اللسان، ناصع البيان وافر التقوى، باش الوجه، جامعاً لمكارم الأخلاق .

هذه الشمائل ليست وافدة على الشيخ الغزالي أو حديثة القدوم عليه، وإنما أكثرها وفي مقدمتها جماع الفضائل ومكارم الأخلاق أصيلة فيه منذ صباه الأول، رافقته ناشئاً، ولأزمته يافعاً وصاحبته شاباً، وغمرته كهلاً. وسارت في ركابه شيخاً وداعياً ومعلماً .

من ثم لم يكن مستغرباً من الشيخ أن يكون ديوانه الذي أنشأ جميع قصائده قبل سن العشرين مزداناً بشعر الفضائل، موشياً بقصائد مكارم الأخلاق، وهي منتشرة على صفحات الديوان مثلما تنتثر النجوم في صفحة السماء، تعلو من قدر الديوان، وترفع من شأنه، وتحبب قراءته إلى ذوى الفطرة السليمة، وتزين مطالعته لطلاب الأدب الرفيع والساعين إلى اقتناص مكارم الأخلاق .

يتناول الشاب محمد الغزالي موضوع الغنى والفقر. والثراء والعدم، يعالج فيه فلسفة الغنى وما إذا كان المال وحده يؤدي إلى السعادة، وانتهى إلى أن المال لا وزن له ما لم يقض حاجة بائس أو يعالج محنة مكلول، ومن ثم فإن الغنى هو غنى النفس وليس غنى الثراء وحده، يقول الغزالي في أبيات جعل عنوانها «سرى وثرى» :

وَدِدْتُ الْغِنَى لَوْ أَنَّ ذَا الْمَالِ مَسْعُدٌ	سَعَادَةُ ذِي رُوحٍ سَعَادَةُ ذِي عَقْلٍ
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَغْتَنِينَ سَعَوْا لَهُ	لِذَاذَةِ مَلْبَسٍ لِّذَاذَةِ فِى أَكْلٍ
حَقَرْتُ ثَرَاءً يَبْتَغِي الذَّلَّ مَوْنَلًا	يُرِيدُ مُقَامِي فِي مَوَاطِنِهِ الْغُفْلَ
وَدِدْتُ الْغِنَى أَقْضَى مُطَالِبِ بَائِسٍ	أَوْ أَسَى جُرُوحَا أَوْ أَبَدُّ مِنْ جَهْلٍ
وَشَرُّ الذِّى آسَى عَلَيْهِ مُطَالِبٌ	لِرُوحِي كَبِيحَاتٍ تَرْدُدُنْ فِي قَفْلٍ
غَنَى أَنَا بِالنَّفْسِ وَالسَّعْدِ وَالْمَنَى	فَأَيُّ ثَرَاءٍ يَبْتَغِينِي سِوَى غُلٍّ

وإذا كن الشاب محمد الغزالي قد فرّق بين الثرى والسرى في أبياته السابقة،
 نازعاً إلى الخير مشجعاً أصحاب المال على فعله ونفع الناس وإلا فالقناعة هي الغنى،
 فإن، يحذر من فعل الشر بإظهار وجهه القبيح، وما أكثر الوجوه القبيحة لنشر الذي
 ينبغي أن يحذر اللجوء إليه دوو المردءات وأصحاب كريم لفعال، بذلك يجعل
 الشيخ الغزالي عنوان المقصودة التي تناول فيها الموضوع « حذار » وفيها يقول :

احذر الشر ما بدا إلحاحه واحتسمه إن الضلال كفاحه
 ليس أولى بالحسم مثل عدو لا يبالي بأى نصر سلاحه
 أو جدير بالاجتثاث كخصم للغلاب الشريف يأبى نجاحه
 سبل الشر ما بحثت طوال مبهمات السعى الخبيث مباحه
 فى اسم هذا الضلال كل دليل عن شعاب يضل فيها جماحه

ومن الخير الانصراف عن خضراء الدمن، ومن الشر الاهتمام بها والإقبال عليها،
 وخضراء الدمن - طبقاً للقول الشريف - هي الفتاة الحميلة تنشأ فى منابت السوء،
 يسر المرء شكلها وجمالها ويسوؤه خلقها وفعلها. إن الشيخ الغزالي يحفظ
 الحديث الشريف صغيراً، ويعرف معناه وممره، ومن ثم فهو يجعل - فى نطق كريم
 الفعل ومكارم الأخلاق - خضراء الدمن موضوعاً يضرقه فى شعره، لبحذر البسطاء
 من خطر الاقتراب منها والاعترار بحمالها، وتلك هي أبيات الشاب محمد الغزالي :

يا ضيعة الحسن الذى أضفى عليك بهاءه
 وكساك من نور الجمال سـمـوّه وسناؤه
 يا ليت قدس الطهر لم يسكب عليك نقاءه
 خدع معانى الخير يزجى للنهى لألاؤه



أولبت برق السحر لم يستبقه وشاؤه
 يا كذب ما أوحى إلى من راعهن طلاؤه
 هبة الطبيعة صادفت روحاً خبيثاً داؤه
 كم ذا يفجع وامق قد مسسه إغواؤه

والشيخ الغزالي - شابا - وقد نظم نفسه فى سلك الشعراء قد عرف أن بعض موضوعات الشعر توصف بسوء السمعة كالهجاء والغزل المكشوف الذى يؤذى الذوق ويخدش الحياء ويغتال سمعة العفيفات الحرائر، بل إن فن المديح أيضا يصنف مع هذه الفنون سالفة الذكر إذا ما اصطنع الكذب ومارس النفاق وخلع على الممدوح من صفات الحسن ما هو عطل منها، ومن المؤسف أن الكثرة من شعراء المديح لم يبرءوا من هذه الصفات المردولة حتى إن الأمير قابوس بن وشمكير سلطان طبرستان كان يرفض أن يستقبل الشعراء الذين يقفون ببابه برغم كونه شاعرا، وكان يقول لحاجبه: إنهم كاذبون منافقون، ويكتفى بأن يأمره بإجازتهم بالمال دون السماح لهم بالإنشاد بين يديه، فأراد الشاعر الشاب محمد الغزالي أن يبين أن المديح إذا ما توخى الصدق والاعتدال وقاطع النفاق والابتذال، صار من أكرم الفنون مقالة، ومن أسمى الموضوعات مكانة، فأنشأ لمثل هذا النهج مثالا فى قصيدة جعل عنوانها «مدحة فى صنيع» وفيها يقول:

إذا كان حسنُ الشعرِ ميناَ مزخرافاً فلا كان شعرٌ نكبُ الصدقِ قائلهُ !
لحتُ اتساقاً بين كلِّ محبِّبٍ وبيتك فى قلبِ هو الطهرِ آلهُ
صنيعٌ كعمقِ الخيرِ فيك قبولُهُ ومن روحك الزاكي ثوى فى نائلِهِ
توسمتُ إخلاصاً يحفّ جلاله وبهجة جوادِ نفى الزيفِ سائلِهِ



أفاضت شعورى الجزلَ آيةَ منةٍ نصرتُ بها والربعُ عريانُ ماحلهُ
فكنت كزهرِ القفرِ أظهرَ طيبه من الشوكِ مؤذى اللبسِ تذوى قواتلهُ
فأى جميلٍ كبّلتنى قيوده؟ وأى شكورٍ إننى الآن فاعلهُ؟

هكذا كان محمد الغزالي معلما للفضائل فى فجر سنيه التى قال فيها شعرا مثلما كان داعيا لمكارم الأخلاق فى جميع مراحل حياته.



الوصف :

كان الشعراء الفحول الأقدمون وبخاصة شعراء الشام ومصر والأندلس يرون أنه لا نكتمل لشاعر أسباب النبوع إلا إذا أجاد شعر الوصف بعامة ووصف الطبيعة بخاصة. وقد برع في ذلك البحترى وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز في العراق، والصنوبري والسري الرفاء وأبو عثمان وأبو بكر الخالديان وأبو الفتح كشاجم والوأياء الدمشقي في بلاد الشام وابن وكيع التنيسي وصالح بن مؤنس وأبو القاسم بن طباطبا وأبو نصر كشاجم والمرفقي في مصر وابن خفاجة وابن حمديس وأمية بن الصلت وأحمد بن عبد ربه وابن شهيد وابن الزقاق البلسي وابن الحاج والمعتمد بن عباد وغيرهم في الأندلس.

أراد الشاب الصغير محمد الغزالي أن يصنع في شعر الطبيعة مثلما صنع هؤلاء الفحول المشاهير، وليس من شك في أن هذا الصنيع كان أمرا موسوما بالجرأة، ولا نريد أن نقول بالغرور، فالغزالي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره وهو يطرق باب الشعر ويسهم فيه، ومع ذلك فقد طرق باب الوصف، فوصف الشمس، والشروق، ووصف الفجر والليل، ووصف البدر والنجوم بل إنه تشجع فوصف الطبيعة الخضراء، فكان - من عجب وبرغم حداثة سنه ومحدودية تجاربه - فارسا جريئا وإن يكن في أول مراحل الفروسية الشعرية التي لم يكملها طبقا لما أوضحناه في صدر هذه المقدمة.

من المنطق ألا تمثل لكل هذه الموضوعات التي أشرنا إليها، ولكننا سنورد أمثلة من خلالها يمكن تقديم صورة أمينة عن الشاعر اليافع محمد الغزالي.

في جرأة محمودة يصف شاعرنا الفجر. وهو في نهجه هذا لا ينحو طريق القصيدة المعتادة، ولكنه يسلك نهج الخمسات التي تتفق قوافيها في المصارع الأربعة الأولى، وتختلف في المصراع الخامس الذي يتفق مع أمثاله قافية ورويا، يقدم الشيخ الغزالي الشاب هذا النهج الجديد قائلا:

ما ذُوْبُ الغِيَاهِبا؟ وغَرْبُ الكَوَاكِبا؟

وشَيِّبُ الذَوَائِبِبا؟ فَكَادُ يُخَفِّي هَارِبا

ضَمَّتِ الظَّلَامُ المَطْبِقَ!

لَمَحَ ضَيَاءُ قَارِبا مُوَاكِبا مُوَاكِبا!!

بالنور يرمى دَائِبِبا يدرجها السَّبَائِبا

ظَلَمَ الدُّجَى المَتَّسِقَ

مَا أَخْرَصَ الْجَنَادِبَا قَضَتَهُ لَيْلَا صَاخِبَا
وَبِالصَّرِيرِ جَاوِبَا دِيَا جِيَا سَوَا كِبَا؟!

صَرِيرِ صَمْتِ رِيْق

نَحْنُ صَدَاهُ جَانِبَا إِذْ ظَنَّ لَحْجَا رَائِبَا
فِي الْأَفْقِ يَعْلُو غَالِبَا مُعْصَفَرَا وَخَاصِبَا

مُفْفَرٌ مِنْ ذَا الْفَلَقِ!!

أَحْيَا الْحَرَكَ الذَاهِبَا فِي اللَّيْلِ كَانِ غَارِبَا
لِلنُّورِ يَبْدُو صَاحِبَا هَاهُوَ ذَا مَخَاطِبَا

لَلَّيْلِ أَنْ تُطْلُقَ!

وَحِينَ يَنْظُمُ الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ فِي النُّجُومِ يُطْلِقُ عَلَيْهَا «لَالِيَّ اللَّيْلِ»، وَيَصِفُهَا
مَبْعَثَرَاتٍ إِلَى الْآفَاقِ، تَفُوقُ فِي بَعْثَرَتِهَا تَنْسِيقَ نَاضِمٍ، وَهِيَ تَشْتَتِ جَحَافِلَ الظُّلَامِ
الْمُتَكَاثِرَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْصَافِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي خَدَعَهَا عَلَيْهَا شَاعِرُنَا الشَّبَابِ
الَّذِي يَقُولُ:

لَالِيَّ اللَّيْلِ فِي دِيَجُورِهِ الطَّامِي كَجَوْهَرٍ - قَذْفِ الْأَصْدَافِ - بِسَامِ
مَبْعَثَرَاتٍ إِلَى الْآفَاقِ فِي عَجَبٍ تَفُوقُ بَعْثَرَةَ تَنْسِيقِ نِظَامِ
طَرَائِقِ النُّورِ تَرْجِي الْهَدْيَ وَسُوسَةَ رَصِينَةٍ كَالسَّكُونِ الْهَادِي النَّامِي
تِلْكَ الْمَصَابِيحُ حَيْرَى فِي تَوْهُّجِهَا فِي أَى نَاحِيَةٍ تَرْجِي السَّنَا السَّامِي!
تَكَاثَرَتْ ظِلْمَاتُ اللَّيْلِ فَالْتَهَبَتْ لَا تَعْرِفُ الْيَأْسَ فِي تَشْتِيتِ إِبْهَامِ
كَأَنَّهَا إِذْ تُغَالِي فِي مَخَافِهَا مَا تَرْسُلُ اللَّمَحَ إِلَّا مُحَضَّ إِعْلَامِ؟
مَنَائِرُ الْفِكْرِ الْوَضَاحَةِ اتَّقَدَتْ فِي نَفْسٍ قَاسِيَةٍ تَأْبَى لِلْإِهَامِ

وفى مجال الطبيعة الحية ينشط الشاعر لوصفها وقد جعلها أمه. فيصف مروجها وبهاءها وشدة الحنين إليها، مجتهدا فى أن يرسم صورة لها مثلما فعل شعراء الطبيعة السابقون، ولكنه إذ ثبت قدمه على أبوابها يظل محتاجا إلى مزيد من الجهد والعمر والزمان حتى ينتظم صفوفهم، وقد كان الغزالي الشاعر حرياً بتحقيق ذلك لو كتب له أن يستمر مع الشعر إنشاء وإنشادا، ومع ذلك فإن الشاعر الشاب بقصيدته «حنين إلى الطبيعة» قد حقق غير قليل من التوفيق فى التزام السمات الأنيقة والقسمات الدقيقة والخيال الخصب فى محاولته تلك التى يقول فيها:

تلك المروج - بهيجة - يهتز فى إيناعها سحر الحياة الخالد
ويموج فى سيقانها متأوبا نغم الطلاقة والرفيف الناشد
خضراء يانعة كميسور المني صفراء يابسة جناها الحاصد
أُمى الطبيعة ما أجل معانيا يرنو إلى أصدائهن الواجد
أُمى الطبيعة كلما زدنا نوى عنها فكل مزيف يتزايد
فى صنعاها الفنان كل سذاجة هى فى ذرا التنسيق قصد واحد



تساقط الحجب التى تطويننى فى شر ما ألقى فهن مصائد
أُمى الطبيعة كم أحن إذا سعت قدماى فى ضاحى حماك أشاهد



القصائد الوطنية :

كان الطلبة المصريون فى الماضى غير البعيد يمارسون السياسة ممارسة فعلية، يقومون بالتظاهرات الكثيفة العامة ضد الفساد والاستبداد، سواء أكان الاستبداد من حكام الداخل. أم من المستعمر الذى احتل أرض الوطن، وفرض حكمه وسيادته عليها، ومن الحقائق التى عاشها جيلنا فى أيام الطفولة واليفاع أن تظاهرات الطلاب كم أسقطت من حكومات منحرفة، ووزارات مستبدة، وكم

نددت بتجاوزات الاستعمار الأوربي لأقطار الأمة العربية من المغرب العربى غربا مروراً بالجزائر وتونس وليبيا وامتداداً إلى سورية ولبنان والعراق .

ولم يكن النشاط السياسى الطلابى مقصوراً على طلاب الجامعة والمعاهد العليا وحدهم، وإنما كان يتسع ليشمل المرحلة الثانوية، وهى تساوى المرحلتين الإعدادية والثانوية فى زماننا هذا، وكانت هناك مدارس ثانوية ذات شهرة فى الإسهام فى السياسة وذات صيت بعيد فى التظاهرات والثورات التى كانت تدخل الفرع إلى قلوب الحكام والمستعمرين على حد سواء وتربك ترتيباتهم وتجهض مؤامراتهم .

من المدارس الثانوية التى عرفت بقوة شكيمة طلابها بحيث كان نظام الحكم يتحامى غضبهم : المدرسة الخديوية فى القاهرة والسعيدية فى الجيزة، وطنطا الثانوية، والعباسية ورأس التين فى الإسكندرية وأسيوط الثانوية .

ومن المعاهد الدينية الأزهرية ذات الشكيمة والعزم المعهد الأحمدي بطنطا ومعهد الإسكندرية الدينى .

كان الشيخ الغزالى رحمه الله إبان كتابة ديوانه هذا، طالباً بالمعهد الدينى بالإسكندرية، فشهد كبريات الأحداث السياسية فى عقد الثلاثينيات، وكان عقد الثورة على الفساد الداخلى والاستعمار الخارجى، فأسهم بشخصه مع زملائه فى العمل الوطنى، وعرف أسباب الفساد، واستجلى مظالم الاستعمار، وشارك فى معرفة أمراض الأمة، واستنهاض عزماتها، واستيقاظ وطنيتها، وبالتالي ترجم تلك الأحداث الوطنية إلى قصائد شعرية انسربت فى المسيرة العامة بأفراحها وأحزانها وصعودها وهبوطها ونجاحها وفشلها .

يكتب الغزالى الشاب ثلاث قصائد طويلة يوجهها إلى الأمة هى : « عودة الأمس »، و« إلى الأمة الكريمة »، و« أمة مسروقة تحت الشمس »، بل يكتب قصيدة عنوانها « جيش مصر » يشن فيها حملة توبيخ وتقريع للمسئولين لسوء حال جيش مصر الذى حولوه إلى جيش غير صالح للقتال، واقتصرت مهمته على توديع المحمل وتشجيع الجنازات . ويتفتت الشيخ الغزالى طالب معهد إسكندرية الدينى إلى شخصية الزعيم المصرى الثائر أحمد عرابى فيكتب قصيدة فى تحيته، ويتذكر الشيخ الطالب « السكندرى » ضرب الأسطول الإنجليزى للإسكندرية فينشئ قصيدة وطنية يضمنها أحزانه وأشجانه لضرب المدينة المسالمة التى يعيش فيها كطالب علم، ينعم بأرضها ويستمتع ببحرها ويستظل بسماؤها .

هكذا عاش الشاب محمد الغزالي الطالب بالمرحلة الثانوية، حاملاً هموم وطنه وأحزان أمته، فترجمها إلى نشاط سياسي يمارسه، وتسجيل أدبي يؤديه، بإنشاء القصائد الوطنية التي تنبه الغافل وتلهب مشاعر اليقظان.

فإذا ما عدنا إلى عطاء الشاعر الشاب قارئین مستمتعين، بل متأثرين تأثرين، فإن قصيدته «إلى الأمة الكريمة» تلفت الأنظار وتستهوى القلوب، لأنها قصيدة ساخنة تخاطب ضمير أبناء مصر، تستنهض هممهم، وتوقظ النوام من سباتهم، في ثوب من عبارات التقريرية وكلمات التوبيخ، وفيها أيضاً يدعوهم إلى الثورة على مصائب التأخر وألوان الفساد، وهي قصيدة طويلة يستهلها بما يشبه الصدمة الكهربائية قائلاً:

مستمري الذل هل تدرون ما كانا أخزاكم الله، ما تأتون بهتانا
وفيها أيضاً يقول:

يا ضيعة الأمس كم ذا سَغْتُمُو جرعاً تشيرُ ذكراً يعيرُ البأسُ من هانا
دمُ الضحايا أكان الماء منسكباً مستمرى الهون في وادٍ به أزدانا
دمُ العزيز لمصر جدُّ مرتخصٍ لوخلف التعبُ الحزونُ شجعانا
«يا ليت لي بكم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناً وركبانا»^(١)
يا للضعيف إذا سيم الحياة لقي ولم يجد من وراء النصر نُشْدانا
إنى لأهتف من قلبي ألافئةً للنيل ما نكثته العهد خذلانا!

ويمضي الشاعر داعياً إلى الثورة دعوة صريحة يقول فيها:

دعوتُ للثورة الكبرى توجّ دماً يابى الحديد ويأبى النار شُطّانا
دعوتُ للثورة الكبرى إلى غرضٍ ينفي السكون إذا ما سيم إذعانا
سكتٌ محتسب الصيحات في غضبٍ لما رأيتمُكم للذل أخداناً

أما وقد فرغ الشاعر الشاب من قصيدته الساخنة التي عرّى فيها تخاذل الأمة واندحارها، الأمر الذي دفعه إلى الدعوة للثورة، فقد رأى أن يذكر الأمة بأمجادها،

(١) البيت مقتبس من حماسية رقم (١) من حماسية أبي تمام.

ومحاولة استنهاضها، لتسير فى طريق مجدها القديم، فى قصيدة نفيسة جعل عنوانها « عودة الأمس » صور فيها ماضى مجد الأمة الإسلامية - ممثلاً فى الشرق - علمياً وفكرياً وحضارياً مع تذكير واضح وعين فاحصة إلى الحاضر الخابى، والواقع المتدهور للمسلمين، وتصوير حضارة الغربية بصورتها الحقيقية المتوحشة البربرية التى ناصبت الشرق العداء، واستباححت أرضه وعرضه ظمناً وعدواناً. يقول الشاعر الشاب محمد الغزالى فى مقام إيقاظ قومه وتنبيه أمته :

أيها الشرق... أنت جدٌ غريبٍ عن جلال . عفى وأمسٍ عظيم
تنكر العين أى أنقاض سوء؟ قد تبقت من البناء الفخيم
أيها الشرق قد غفوت طويلاً وتماديت غافل التهويم
إن سحراً تزهو به جنباتٌ منك يذروه رائع التحطيم
ارتضتكَ السماء مهبط وحىٍ حقب الطهر فى ديار النعيم
فإذا الصفحة الربيع محولٌ ومحت نورها رياح سموم
يا حفيد العتيق من كل مجدٍ أين فى الابن مجدٌ أكرم خيم!
ضجت الأرض من حضارة سوءٍ قد غلا شرها وغرب أثيم
أين من ذاك للفضيلة شرقٌ؟ لا كدنيا الآلات صرعى جحيم!
أيها الشرق هل أراك عزيزاً فى انتصارٍ على الألد الخصيم

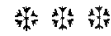
وحين كتب شاعرنا الشاب قصيدته فى جيش مصر وما كانت عليه حاله من ضعف واستكانة، وذلة وتعطل، قفزت إلى ذهنه شخصية البطل أحمد عرابى وزير الحربية، وصاحب الثورة التى ارتبطت باسمه، والمعارك الحربية التى خاضها ضد الإنجليز، وكان النصر مؤكداً للجيش المصرى بقيادته لولا الخيانات العديدة التى تسببت فى هزيمة الجيش العظيم وقائده الباسل، والتى كان أهمها خيانتين: خيانة الفرنسى ديليسبس وخيانة الضابط خنفس.

إن الشاعر الشاب محمد الغزالى المتوهج وطنياً، الممتلئ حماساً وحمية يكتب قصيدة عنوانها « أحمد عرابى »، يصب فيها الشاعر كل ما تحمل جوانحه من حب وتقدير وتحية وتمجيد للبطل أحمد عرابى، يقول فى بعضها:

حيَّتْكَ من نفسى عواطفُ ثائر لا يستكينُ لسطوةٍ من جائر
ويثِيرها ناراً يهولُ وقودُها فيبيدُ أو تلقاهُ أوبةً ظافر
حيَّتْكَ من نفسى عواطفُ مخلص لا مأربٌ يلهيه شأنُ الفاجر
للمجد ما ينبغي يكللُ أمةً للنصر ما يسعى قليلُ الناصر



حيَّتْكَ نفسى بل تحية أمة تحبوك تمجيد الجرىء الماهر
إن فاتك النصرُ الجميلُ فإنها كبواتُ جدٍ فى طريقٍ واعر



إن فاتك النُججُ العزيزُ فإننا نسعى نحطّم رُغمَ جدِّ عاثر
فى ثورةٍ كبرى سنسعرها لظى يفنى أتونَ لهيبها المتطاير

ويبلغ افتتان الشاعر الشاب بعرايى قمته فى تقديسه لشخصه على هذا النحو
الجرىء:

قُدِّسَتْ مهزوماً تعفّر فى الثرى قدست مقهوراً كسير الناظر
قُدِّسَتْ يوم بكيت إذ سقط الحمى لا نصر يُرجى لا دفاع مغامر



إن الذى قدمناه من نماذج يدل فى وضوح على أن محمدا الغزالى الشاب كان
شاعرا واعداً، أسهم بفنه الشعرى الجاد فى جميع قضايا زمانه، وتحدث فى صراحة
وإبانة - شعرا - عن قضايا نفسه .

والأمر الذى نرمى إلى توضيحه والتأكيد عليه هو أن هذا الديوان الذى نقدمه،
قد كتب كله فى سنوات قليلة سابقة على سنة ١٩٣٦م أى أن محمدا الغزالى
كتب هذا الديوان بجميع محتوياته وهو دون التاسعة عشرة من عمره المبارك، ومن
ثم ينبغى أن يتسامح القارئ معه حين يعثر على هفوة هنا أو غفوة هناك، فلم يكن
الشاب قد استوى على دوحة الشعر عوده كاملاً وهو يكتب هذا الحصاد النفيس
أغلبه، المتوسط أقله .

لقد سعدت بالجهد الذى بذلته فى تحقيق هذا الديوان، فقد سلمه إلى المهندس ضياء الدين والدكتور علاء الدين نجلا الشيخ الجليل وقد عثرا على هذا الديوان مجموعا بحروف المطبعة القديمة، وكان اكتشافهما له بين مخلفات والدهما الجليل -طيب الله ثراه- أديب -عرا إلى السرور، بن وإلى دهشة بعض أصدقاء الشيخ الذين لم يكونوا يعرفون من أمر شاعريته شيئا.

لقد كانت الأخطاء المطبعية من الكثرة بحيث تحول بين المرء وبين قراءة الديوان وبالتالي فهمه، إذ لم نكد تخلو صفحة من عديد من الأخطاء التى يصعب تصويبها، فضلا عن الألفاظ الساقطة من الطابع والكلمات المشوهة التى تحتاج إثبات بدائل لها. مما يشكل موقفا شائكا ومحوطا بالعقبات الصعاب.

غير أن حبي للشيخ العزالي وأخوتى له عقودا من السنين قد بعث الهمة فى نفسى، والصبر فى جوانحي، فتوفرت على الديوان قراءة مرات متتالية مستأنية، وفى كل قراءة كانت عينى تقع على جديد من الأخطاء اللفظية والمعنوية والأسلوبية والعروضية والألفاظ الساقطة والكلمات المشوهة، أو تلك التى ربكت جامع الحروف فقدم بعضها على الآخر إلى غير ذلك مما يصعب حصره ويقصر الباع عن استقصائه.

هذا وكان الشيخ الشاعر الشاب كثيرا ما يختار كلمات غير شائعة الاستعمال وألفاظا غير مأنوسة للناس، يصعب على القارئ غير المتمرس فهم معانيها ودلالاتها فوضعت فى الهوامش شروحا لها، وتجليات لمعانيها. وبذلك يكون ديوان الشيخ محمد العزالي الذى اختار له عنوان «الحياة الأولى» صالحا لأن يتبوا مكانه فى قلوب محبيه الكثر، ومريديه الكبار.

نسأل الله أن يجعله مصدرا نفع، وسبيلا فائدة. وأداة تربية. ووسيلة تهذيب، فالديوان يستهدف كل هذه الأغراض التى لم يغفل عنها الشيخ الجليل يوما ما فى حياته، وهى إن شاء الله تعالى فى ميزان حسناته، كما نسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد المتواضع خالصا لوجهه الكريم. وعليه سبحانه قصد السبيل.

مصطفى الشكعة

فجر الجمعة ١٠ من جمادى الأولى ١٤١٨

١٢ من سبتمبر (أيلول) ١٩٩٧

الحياة الأولى أو نحو المجد

ثمانى عشرة مرّت سهادا !!
فكانت يقظة المضنى بنائى
وكانت فى سبيل المجد تسمى
إلى أن أشرقت هدياً جليلاً
أردت على المنام . ولن أرادا
كرى النّوأم أن يغفو اتئادا
تغالبه ولا تألو اطرادا
شموس الصّحو فى أفقى تهادى



وأضحت للورى - عندى - ظلال
عنانى ما قلوه من عظيم
تنكر لى ! ركود ليس يفتا
وشرّ النوم ما ران إبهاما
ثمانى عشرة مرّت طلاباً
كأنى إذ أطلّ على رحاب
تلوح لمقلتى أعلام نفس
يشعّ لها وميض من حياة
مقلصة الرسوم . نأت مهادا !!
تجافوه وأعيانى افتقادا
يثير الصمت كى يطغى فسادا
يضيع فى مجاهله الفؤادا
حشيث السير ما همدت نفاذا
حواها الأمس ، يوسعها ابتعادا
محيرة لنشدتها ارتيادا
يُحسّ بخيمها العانى المرادا



تَحْسُ بِخِيَمِهَا الْعَانِي شُرُودًا يَرَاوِدُهَا لِيُسْلِسَهَا الْقِيَادَا
فَتَهْزِمُهُ وَتُرجِعُهُ فَلَوْلَا كَبِيحَاتٍ تَحْذَرُهُ الْمَعَادَا
كَأَنَّ النَّصْرَ خَامِرُنِي أَنْتِشَاء وَقَدْ نَكَبْتُ أَثْقَالَا شَدَادَا
وَزَالَتْ عَنْ وَهِيَجِي مَظْلَمَاتٌ صَنَعَنْ لَهُ حِجَابَا أَوْ رِمَادَا

إمضاء

محمد الغزالي

الخمرة الإلهية (١)

ضحوكُ إلى الشَّرْبِ الصَّفىِّ وهيجُها ففى بسماتِ الكأسِ بسمَةٌ نور
عذابُ شهياتِ التحسُّى كأنما سرارُ وجودِ الروحِ ذوبٌ نَمير
دَفُوقُ المعانى مصعداتٌ إلى الحمى حمى الله مضواءٌ كفيضِ ذُرور



حماكُ، وهل يسمو إلى السدة التى علاها الجلالُ الطلقُ غيرُ طهور؟
حماكُ وهل يَهْوَى بعيدَ انفساحه مصرعُ أقيادِ ذليلِ مرير؟
فأنت الكمالُ المستفيضُ بداعةً فيا سعد روح من سناه عمير!!



حياتُك ضِلَّاتٌ (*) فخذُ من رحيقها قطيراتِ مجدودِ الحياةِ قرير
فتم السعاداتُ التى لن تنالها بأسهالِ دنيا أو رؤىٍ لحسير
ولو مسَّ الملحُ صرعى شرورها بغيا لأضحتْ طُهرَ بنتِ الحور



(*) الضلة بضم الضاد الخدق بالدلالة وبالفتح الحيرة وبالكسر الضلال.

كأن السرور المجتنى من شرابها إليه سرور الأرض جد حقيق
إذا صحوها يخبو فلم ألف كابيا ثوى فيه إحاشُ الشقاوة يورى
كمثل مزجى من ربا الخلد مسعد إلى جاحمٍ وعر المهاد حرور



فأى كئوسٍ غولها للدننى التى تروّع بؤساها وأى خمور...؟
ويا عجبا كم من طمانينة بها وداعة إيمانٍ وأمنٍ قرير...؟
نماها الجنب المستعز شموخه حواشى ركابٍ بالبهاء منير

الخمرة الإلهية (٢)

غريباً أرى نفسي فأجفلُ إذ هوتُ حياتي يغزوها عن الله بُعدُها !!!
ورُبُّ كئوسٍ حفها الأمنُ والهدى شربتُ فما أسمى الذي ردَّ مجدُها
خمور تناهي في الكمال صفاؤها نفى السوء معناها إذا اشتير شهدُها



أعيدى طريد القرب من شر ضلة رمته بعمياء تسعر وقْدُها
فطال غرورٌ كان يُزجى خداعه ! بنفسى ، فمن وترٍ قد احتاج حقدُها
إلى الله ! واغتالي من الصحو زائفا كذوب حياة خاب في السعى وردُها



ودنيا أتاهت عن مثاب هويته هداى بريق الكأس إن ضلَّ قصدُها
أصارعها آصار^(*) نفس تريدها حياة مرجى القرب لله وجدُها
ففى الكأس فيض الحق والجد كلما طغى من جحيم الناس يُجتاح نكدُها



(*) آصار مفردُها أصر بضم الهمزة وفتحها وكسرهما يعنى عهود .

أعیدی طرید القُرب یا خمرُ إننی
وفی الکأسِ رىّ للصداء^(*) إلى الهدی
مشاعرُ مغلولِ طوی الِکونِ حسُّه
یهونُ لدى المنعِ . لا جاد رفدُها
تثیر حیاةً لن یُغلبُ وأدُها
ودنیا شبابِ لیس ینفک قیدُها



معتقۃُ الآمادِ فہی قَدیمۃُ
له المجدُ جباراً إذا کان بؤسُها
سکبتُ علی کلِّ الحیاةِ ملامحاً
مع اللہ ما أزکی ! وقد طاب خلدُها
له المجدُ رحماناً إذا کان سعدُها
تلوح بنورِ اللہ إذ کان فردُها

(*) الصداة مفردھا الصادی وهو العطشان .

الخمرة الإلهية (٣)

نشوة الروح زهاها قيسٌ
طوّفتَ فيها، ورادتها، فما
كلما زدتُ احتسَاءً زادنى
وحبّتنى كشف أسرارٍ لدى
فى دُنَى أخرى، إلى الأوج رفيعه
أدركتُ خبرَ نواحيها الوسيعة...!!
طيبُ رِيّاها نفاساتٍ وديعه
خافيات الكون تلقاها منيعه



جرعة الإلهام والقرب وما
وشعاع الهدى فى الأكواب من
اغتدى نشوان لا يلوى على
فى جلال الله من حُسْنى بديعه
خامرته ومضة الملح سريعه
بهجة كالآل(*) وضاحا بقيعة



اسقنيها أنس أوضارى إذا
واسقنى أكؤسها مترعة
ينظم الأرواح فيأض سناها
حفلت بالشر ديانا الوضيعة
أستفق من هول بؤسها المريعة
فى مجانى الصفو والبشر المريعة(**)

(*) (الآل شبه السراب . القيعه الأرض المنخفضة .

(**) (الريعة بفتح الميم يعنى المخصبة .

فيك يا خمر انطلاقي عازفا عن شرور خفت الدنيا صريعه
أين غول^(*) الظاهر المزرى فى مسعدات من معانيها المذيعه
لذة الأرواح فى معراجها نحو أوطان نأت عنها سميعه
فهى لا تألو طلابا نحوها أبدا تهتف فى شوق نزوعه



يا جمال الكأس فى رقراقها هدأتى فى قرة النفس الصديعه
وانصرام لقيود أحكمت ذلة الهون^(**) ودياه الفظيعه

(*) الغول يسكون الواو الصداع والسكر .
(**) الهون يعنى الهوان والاحتقار .

الخمرة الإلهية (٤)

فؤادى ما وعى أو ما أحسّا فلن يرضى من الأوهام أنسا
صميم الحق باعدنا مداه ولو شئنا لأدر كناه لمسا
جنى الخمر ما يغى شهيا جناه من طلا (*) الرحمن كاسا
جوار حف عليها كل شىء فمن يسمو إليه طاب نفسا



كيانى فى وضوح العلم نور كما الأكوان فى الإدراك شمسا
فلن ألقى الجهول وقد علانى ولن آلوه إشهادا محسا
هواتف باسمه ينبئن عنه وكنت حسبتها من قبل خرسا
عرانى من معانيها قرار شعورى إن عداه صار بخسا



تفجر سلسيل الخمر ريا لظمان صدى ما تحسى
دمائى فى عروقى مفعمات حيننا للرضا لم يدر ياسا

(*) الطلا من أسماء الخمر .

بعدت عن الأنام فليت شعري أقربى منك أرجوها مؤسى
تباعدنى الحياة فهل ترانى أحيّر إن تخفى الحق لبسا
سناء الشرق يحبوها ضياء ويحبوها عقيق الغرب ورّسا (*)
وأذنى مثل عيني قد سبتها معان أرسلت تهمسن همسا

(*) عقيق العرب يعنى حمرة الغروب . الورس الصبغة الحمراء .

عوائق

يا قـيـودى تحطـمى	عند مـثـواك فـارتمى
قـسـدُ تـأبـيـتُ ذلـةً	فى تـبـارـيـح أـدهـم
وتمردتُ كلمـا	توثقـيـنـى بمـحـكم
وترينين بغـيـةً	للركـود المـهـدم
فإذا شئتُ رفـعةً	كنت أغـلال مـرغم



يا قـيـودى تحطـمى	عند مـثـواك فـارتمى
إن أـمـرا رـغـبـتـه	قـد غـدا غـير مـلـزم
واحـتـبـاسـا أـردتـه	لـم يـتـح، لـم يـحـتم
فى انـتـصـارٍ وأدبـه ^(*)	بـعد أن كـان هـازمى
فـأنا الآن مـطـلق	لـست للذـل أنـتـمى



(*) وأد يدعى الدفن حيا ومنه وأد البنات فى الجاهلية والمعنى هنا : قضى عليه .

يا قيودى تحطمي	عند مـثـواك فارتمى
كل غل حطمـتـه	كـاد يـرتـد حـاطـمى
كيف يرضى سفوحها	مـسـتـطـيع التـسـنـم
لا سـكـون يـرـوضـنـى	فـيـه تـخـضـيع مـسـلم
فاستقرى مهينة	عند أدنى القـسـم

دنیای

هی دنیای عشتُ فیها فریدا وانتأیتُ المأوی القصی عتیدا
وبحسبی فی عزلتی من سمیر أننی ما حییتُ أبقی وحیدا



أخصلتني من كل أوشاب سوء تبغیني منذُ اقتحمتُ الوجودا
تبغیني قسراً يكفكف ناری يتمشی فی جذوتیها خمودا
وألماً یزجی السكون قتلولا لنشاط ما یستکین همودا
قد تناءت عني وليس انتصارا فی كفاح بل كنتُ عنها صدودا



ما لهدی الناس هوت فی حضيض ساء ما استمرءوا القرار البعیدا
ارتضوا من حراكها الهون قصداً فی ضلال عن السبیل مجیدا
فوعوا من عظیمها أن ما لم یكُ قدحاً یكُ الجلیل التلیدا



هي دنيای قد ضننتُ بها في
وضجيجٍ من المعاني هواء
قد طغى سوءُه وأينع شوْكُها
كم من الخير صار للشر يحيى
وضلال يجرى إلى يقظات
مسترادٍ وعى المطاعن سودا
مقفر الجد مستريب جمودا
قتل الزهور واستحر صعودا
فيحيل الموات أنضر عودا
في جلال الأحياء حتى تبيدا

النفس والكون

بين النفس والكون علاقة فكأن عناصرها أخذت من كل آياته معانيها وترجمت
فى إحساسها به غوامضه .

من مديد الفضاء دقَّ عن الفهم	م وضوحاً أو ادراك نهائيه
وانبهام ^(*) الآفاق عمقاً بعيداً	ما أخطأت به وهوم درايه
صاغت القدرة الصناعات نفوساً	مبدعات فهن فى الكون آيه



نحن أصداء ما حوى من معانٍ	حافلات بالسعد أو بالشكايه
تكفهر الأجواء والنفس	ضلالاً وتستنير هدايه
والجديد النضير بعد البلى الهـ	ش معان للهدم أو للبناءيه
رددتها الأرواح ثم أفاضت	ما أحست به على الكون غايه
عاكسات نفس الشعور قويا	أو ضئيل المرمى قصى الزرايه
نحن فى الكون كالخلاصة جمـع	نا شتيتاً من مستدق العنايه

(*) الانبهام : الغموض والاستغلاق .

الخطيئة

هو اجسُ الشرِّ أضحتْ وطأةُ عَظُمَتْ ثم استحالَتْ غَلَاباً بَيْنَ الخطرِ
فى فترةٍ هَمَدَتْ فى النفسِ عَصَمَتْهَا فراضها فعنتْ إصْغَاءَ مُؤْتَمِرِ
وسطوةُ الشرِّ إنْ تَلْقَى مهادنةً تستلّ ماضيةً فى غير ما حذرِ



وللسقوط سويغات تطيش لها عواطفٌ طالما ضجّتْ لدى النذرِ
وفى طباعِ الأناسى ما يزيّنُها شوهاء قاتمةٌ يا خفّةِ البشرِ
ساعُ الخطيئة فى مريدٍ عسرتها تُجوزها الروحُ فى لُجبٍ من الغيرِ
يستمرئُ الجسدُ المنهومُ ما حليتْ مظاهرٌ قد حوتْ من كل ذى قذرِ
فإنْ ثويتْ فليلُ الإثمِ مطردٌ وإنْ خرجتْ فلا يُقربُك من وضرِ

ملائك الخير

ملائك الخير لا تنسينني أبداً
وفي غصون هجوم الشر فاضطهدى
وعكزى نصره بالنهض وسوسة
هديك الطهر جل الهدى نبرته
ملائك الخير كم لليأس من غلب
ولم يجد أملا يرضى لعثرته
فأنهضيه ليرجو عند كبوته
ملائك الخير فاهديه إلى رشد
إذا تناهى ضلال في غوايته
ملائك الخير لا آلوكم مستمعا
لا زال فيض نداءك الجزل لى مددا
جنوده السود ما إن زال منعقدا
وبالضمير مثاراً إن يكن خلدا
لا زال متسق النغمات مطردا
إذا الشقى تمادى غيه عددا
إقالة فتهوى حيثما وردا
مواطن الخير يسعى نحوها صعدا
رأى المآب ذلولاً فانبرى شهدا
فعجلى الحسم والإيقاع ما وجدا
ولست آلوكم حتى النصر مجتهدا

يقظة

يا حياتي حَفَّكَ الْهُدْيَا ن(*) من روح وعقل
وَحُبَّيْتُ الْيَقْظَةَ الْكَبْرَى رى نَجَاةً من مضل
وَوَعَيْتُ الْفِكْرَةَ الْعُلْيَا تحامت كل سفل
جَزَلَةُ النَّبْعِ سَكُوبٍ من حضيض الجسم تعلو
يا حياتي إِنَّمَا الْبَدَنُ طهور الخلق سهلى
من طهور النور يروى مستهاماً مثل ثمل



فَالْجَمَالَ الْفَذُّ فِي روح صدق غير نذل
فِيهِ لِلْمَجْدِ اتِّسَاقٌ لبغيض الشر يجلى
كَيْفَ يَصِفُو نُورَ رُوحٍ فى ظلال الجسم عُفْلُ
مَا بِهِاءٍ فِي وَعَاءٍ ليس يحوى غير خل
فَإِنَّتَهُاءُ الْجِسْمِ شَيْءٌ ليس يعتد بفصل

(*) الهديان بضم الهاء مثنى الهدى.

إِنْ كَمَالُ الرُّوحِ يَسْتَأْ دِيهِ فَلْيَأْمُرْ وَيَمْلَى
يَا حَيَّاتِي هُوَ مَنْظَا رَكَ لِلْعَمَلِشِ الْمَذَلْ



إِنْ لِلْجِسْمِ طِبَاعَا إِنْ تَغَالَتْ فَلْقُتْلُ
فَاعْكَسِي الْأَمْرَ تَرِيهِ إِنْمَا صَحَّ بِشَلْ



مَا دَوَى الشَّهْوَةَ الْمَرْ نَانَ إِلَّا مَثَلُ طَبَلْ
وَضَائِلُ الثَّلَمِ يُقْصَى الصَّ بَوْتَ فِي أَهْوَنِ شَكْلْ

« الصلاة » ... ٩٩

تَلَكُمُ الْوَقْفَةَ مَا أَجْمَلُهَا ! فِي حُفُولٍ (*) بِالْمَعَانِي الْذَاكِرَةِ
تَلَكُمُ الْوَقْفَةَ فِيهَا مَتْعَةٌ مِنْ جَلَالِ الْفَتَرَاتِ الطَّاهِرَةِ



فَالطَّوَيَّاتُ الْخَفِيَّاتُ إِلَى صَمْتِهَا الْبَارِعُ تُلْفَى سَافِرُهُ
مُسَلَّسَاتُ الْقَيْدِ قَدْ أَسْلَمَهَا مَبْهَمُ الْأَنْفُسِ أُولَى آخِرُهُ



فَتَرَاتُ الطُّهْرِ مَا أَجْمَلُهَا ... ! حِينَ تَبْدُو فِي الذَّهُولِ الذَّاكِرُهُ
فَلَوْ أَنَّ الْعُمَرَ مِنْهَا كُلُّهُ مَا ذَرَى التَّشْرِيدَ حَتَّى الْبَادِرُهُ



وَاصِلَاتِي حِينَ مَا يَرْفَعُنِي مِنْ حُدُودِ الْحَيَاةِ الظَّاهِرَةِ
وَاصِلَاتِي بِكَنُوزِ النُّورِ أَنْ يَقْطَعَ الْجِسْمُ الْأَثِيمُ الْآصِرُهُ



مُذَكِّرَاتِي أَبَدًا بِالصَّحْوِ إِنْ غَامَ أَفْقِي فَتَعَالَتْ بَاهِرُهُ
كَالْحَصَانَاتِ تَقِينِي سَوْءَ مَا يَبْتَغِينِي مِنْ دُنَايَا قَاسِرِهِ ..

(*) جمع حفل . ولفظ حفل يعنى الكثير أو التجمع بكثرة .

معانى الضاحك.....

أستعرض الدنيا وإننى الآملُ أبداً لمَحَيَّاهَا أنا المتفائلُ
قلبي يحدثنى حديث مؤكّد السعدُ فى العيشِ المحبِّ ماثلُ
الحزن فيها قد نفاه لُبُّها لبّ جميلُ الزهو إذ يتخايلُ !!
صدفتُ عن الأكدار دنيا لا تنى تزجى الضياء إذا غزاها آفلُ
خفيتُ فما الداجي السحيقُ بعادهُ الوعرُ مجّهلةُ الذى يتشاكلُ
إلا يزيدُ هواى فيه خفاؤه ويزيدُ نشدتهُ الحبُّ السائلُ
نورُ الحياة وما أجلُّ طيوفه ! يزكو برونقها البريقُ الحائلُ
وحيُّ الضياء نصاعة ورحابةُ كالعرس زخرفه سرورُ كاملُ
فى الأرض مربّعها ومشتاها أرى نور المنى إن كان يأسٌ ماحلُ
والقبة الفحاء غائمةٌ وضا حيةُ الصحيفة فى مدى يتناولُ
جُدُدُ (*) المعانى فى الحياة قصيةُ عن لغو مصنوع سنّاه زائلُ
عيناى شواقان حُسنا يُجتلى للنفس عيشا فيه فهو الأهلُ
نُهرٌ وليلاتٌ يروعُ جلالها فتنا ينمّقها السلامُ الشاملُ

(*) جُدُدُ : مفردُها جديد وجديدة .

بسماتى الحسنى وكم أرسلتها
فِطْرُ (*) الحياة رحيبة ميمونة
لا شؤم يذهب بى مذهب أسود
عفواً تداعب طيبتها وتبادل
بقيت فلا المعنى المنضّر ذابل
عن كل أفراح الدُّنا يتذاهل !!!



نفسى هواها الخيرُ فهي غريبة
ناسٌ تهوّم فى مباءة عاصف
نبذتهم الدنيا سعادة مُرتج
عن سوء ما يهوى إليه سافل
نُكِرُ الحياة بها مُبِيزٌ غائل
ضاحى السريرة للونى (**) يستأصل !!
مُسَخُوا ضعافاً فى اجتماعِ شأنه
للسوءِ قِوالٌ له أو فاعل
صفحاتٌ ما خَطَّتْ نصاعتُها سوى
خطراتِ قلبٍ بالعلا هو حافل
عقلي ولا نورٌ يحلُّ رحابه
إلا ومن قلبى استطاب الناهل
لم يرُضَ إِيحَاءٌ ولا هدياً إذا
لمح المهانة فيه خيم عاقل
تدرى النفوسُ الملهماتُ طريقها؟
بين الأباطيل التى تتخاذل !!

(*) فطر : مفردُها فطرة وهى الابتداء والاختراع.
(**) الونى : الضعف والإعياء.

الزمن السَّحُور

رَافَقْتُ هَذَا الْكَوْنَ مِنْ مَوْلَدِهِ إِلَى الْمَمَاتِ الْمُرْتَجَى الْمُرْتَقِبِ
فَأَنْتَ لِلْحَيَاةِ صَنُوءٌ مَفْرَدٌ مَكْتَنَفٌ مِنْهَا ضَجِيجُ الْمَوْكَبِ تَحْفِ
مَوَاكِبُ الْحَيَاةِ تَسْعَى حَيَةً أَوْ أُدْرِجَتْ مَظْلَمَ ذَاكَ الثَّرْبِ
تَحْثُهَا أَمَلَةٌ فِي غَدِهَا تَسْتَأْفُهَا هَامِدَةٌ فِي الذَّهَبِ
أَمْسُ الدَّفِينِ مَغِيْبٌ لَا يُرْتَجَى مِثْلُ الْغَدَاةِ تَحْفِ سِتْرٌ مَغِيْبِ
سَيَانُ عِلْمٍ لَيْسَ يَجْدِي مَاضِيَا أَوْ جَهْلُ آمَادِ الظَّلَامِ الْمُخْتَبِي
لَا نُورَ إِلَّا الْيَوْمُ فِي إِشْرَاقِهِ وَحَوَى شَمُوسَ الْأَمْسِ دَاجِي الْمَغْرِبِ
مَنْ مَطْلَقَ الزَّمَنِ السَّحُورِ رَحَابَةٌ وَفَتَاءُ آثَارِ كَثِيرِ الشُّيْبِ
غَمَرُ الْقُرُونِ سَحِيْقَةٌ فِي غَابِرِ وَطَوَى الْقُرُونِ خَفِيَّةٌ كَالْغَيْهِبِ
سَيَّارُ وَالْإِصْرَارِ مَلَأَ فُؤَادَهُ سَيَّارُ لَا يَدْرِي لَغُوبِ الْمُتَعَبِ
إِنْ نَرُضْ أَوْ لَا نَرُضْ فَهُوَ مَسْخَرٌ يَطْوِي الدُّنَا فِي سَيْرِهِنَّ الدَّائِبِ



لِمَسْحِ زَمَانٍ ثُمَّ مَاذَا؟ مَا تَرَى؟؟ شَاخٌ أَكْتَهَلَ لَا ذَا الْوَلِيدِ الْمُخْتَبِي

أو نال من خفضٍ ومن رفاهة
وبدّل النّصرَ الربيعَ قاحلاً
أو غلب الصمتُ حياةً ما ونتّ
في كلّ أفئدة الورى لك معلّم
كم أنت في القصر المحبّ موجز
كم أنت في الطول المملّ لجاجة
متباينُ الأوسان ناء سرّه
بحرّ هي الأيام في قطراته
لا اليوم مقياسُ الدهور بعيدة
الشمسُ إن دارتُ ففي دوراتها
ما اليوم إلا لحظة في خاطرٍ
يا قسّمتي منه وما أضالها !
كم قد أرى من بكر زاهية
لا ليت شعري هل أنا مُقتطع
إني لأرجوك انفساحاً أجلى
يأسُ يؤس في ضياع المترب (*)
وبدّل الربع قواء الحزب
تثيرُ إحياء الحراك الصاخب
متباينُ الأوسام جدّ معجب !!
إن سرّ قلب المرء أو إن يطرب !!
مكروهة تُرمى لدى المكتئب !!
طاغى الحقيقة والسرار الخصب
ذخرتُ بها أمواجه إن تصخب
لا الذرة الصغرى بتيه سبب
فردّ مدارّ وعديد أحقّب
في ذهن ميعاد الهدى منشعب
في عُمر كون مدّ لهم النقب
أو كم أرى من مغرب ملتهب
منك أو أنت قاطعي مُقتضبي
فُسحة مجدود (**) مُضاء الكوكب

(*) الذي أصابه الفقر .

(**) المجدود : هو ذو الحظ السعيد .

الحضارة الحديثة

ما قادها الغرب فلتصمد لها الغير
غيلت(*) براءتها والشرق مدرجها
لما تعرفها الغرب المريد ذوت
فكلما جدت السعى الحثيث إذا
كأنما الغرب موكول إليه دجى
قد كان شيطانها إذ كان موردّها
حضارة ساء ما شاد البغاة(**) بها
قد نمّقوا الظاهر الخداع واصطنعوا
ما ثم إلا رسوم كل ما عنيت
فدينهم من هواها كل ما رغبوا
حضارة الآلة المطموسة احترقت
إراحة الجسد المنهوك غايتها
تلك الحياة التى تهوى وتنحدر
لا إثم يوبقها بالسوء ينهمر
مواطن الخير يحو خصبها الشرر
معرقل السعى قد باتت له حفر
يطوى الحياة إذا تعلو فتندثر
مزلقا حفها من حتفها الخطر
وساء ما زخرفوا فيها وما بذروا
مظاهراً لبها استخذى به الوضر(***)
به وجوهر ما يجدى له احتقروا
وسعيهم من هواها كل ما اقتدروا
من حرها الروح إذ للضيق تقتسر
وبئس ما كيلته ضاق ذا الوطر

(*) غيلت البراءة: أى اعتيلت وقضى عليها.

(**) البغاة: جمع باغ وهم الظالمون.

(***) الوضر: يعنى الوسخ والأصل فيه وسخ الدسم.

ما أكرم المهد حتى فى الشرور يُرى سهل الخليقة، لا تعقيد، محتقر
تلك الحياة كأنها لم ترب على هدى السماء تعالت رسلها الطهر
أغاية الأعصر الفيحاء طيبة ذاك المصير؟ فما أسمى الذى خسروا !!

الأمل

أيها الهاتفُ بى : إلى الإمام أى معنى فى دمائى ثائر؟
يستحث السير دفاق الدوام جارفاً كلَّ عناءٍ قاهر!



فى رسوخٍ واطرادٍ لا يبيدُ دائب السعَى دُءوب الزمن
كلُّ يومٍ فى دُنا عزمٍ جديد ناهلُ القُوَّة نائى الوهن
ناهلُ القُوَّة من معنى الحديد وانسكاب من جلال الفطن



أيها الصبحُ إذا كان ظلام لا وقوف فى الزمان السائر!!
مذكرى بالنصر إن كان صدام فى دُجى الضعفِ البئس الخائر



ينتقل المنتحر من لا شعور بالسعادة إلى لا شعور مطلق (من منطقتهم)!!

أيها الباخعون(*) أنفسهم	إن فقد الشعور أمر مقيت
قد تركتم نور الحياة وأوصد	ثم رتاج الدجى فأين البيت
ما بدلت من عيشكم؟ أشقاء	أم نعيم في نيله أن تموتوا
لا شقاء ولا نعما زعمتم	فقد حس عن الحياة شتيت
إن خيراً منه شقاء مقيم	في حياة بنورها مكبوت



(*) الباخعون : يخع نفسه يعنى نهكها وكاد يهلكها من غضب أو غم .

سرى وثرى!

وَدَدْتُ الْغِنَى لَوْ أَنَّ ذَا الْمَالِ مَسْعَدٌ سَعَادَةُ ذِي رُوحٍ سَعَادَةُ ذِي عَقْلِ
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَغْتَنِينَ سَعَوْا لَهُ لَذَاذَةُ مَلْبُوسٍ لَذَاذَةُ ذِي أَكْلِ
حَقَرْتُ ثَرَاءً يَبْتَغِي الذَّلَّ مَوْتَلًا يَرِيدُ مُقَامِي فِي مَوَاطِنِهِ الْغُفْلِ
وَدَدْتُ الْغِنَى أَقْضَى مَطَالِبِ بَائِسٍ أَوْ أَسَى جُرُوحًا أَوْ أَبَدُّ مِنْ جَهْلٍ
وَشَرُّ الذِّى آسَى عَلَيْهِ مَطَالِبٌ لِرُوحِي كَبِيحَاتٍ تَرْدَدُنْ فِي قَفْلِ
غَنِيٌّ أَنَا بِالنَّفْسِ وَالسَّعْدِ وَالْمَنَى فَأَيُّ ثَرَاءٍ يَبْتَغِينِي سِوَى غُلِّ

السعادة فى الطفولة

أظنُّوا فى الطفولة كلَّ سعدٍ ينقُبُ عنه فى النهج الشرود
لعمرك الحقَّ ما جدوى هناءٍ قصيَّ عن مداريك الوليد
فلا يُفرحُك أنك كنت قبلاً صفى العيش فى الأمس الرغيد
فما كنت الذى ظفرت يداه شهياً من أفاويق الجدود

خضراء الدمن أو الجمال القبيح

يا ضيعة الحسن الذي أضفى عليك بهاءه
وكساك من نور الجمال لسموه وسناؤه
يا ليت قدس الطهر لم يسكب عليك نقاءه
خدع معاني الخير يزجى للنهاى لألأؤه



أوليت يرق السحر لم يستبقه وشأؤه
يا كذب ما أوحى إلى من راعهن طلاؤه
هذى الطبيعة صادفت روحا خبيثا داؤه
كم ذا يفجع وامق قد مسسه إغواؤه



دنيا الجمال المستفيع ض عذوبة إغراؤه
قد خامرته نقمة فأنجاب عنه ضيائه

بُونُ تَفْـاقِمِ نَأْيِهِ (*) بَعَثَ الْأَسَى إِزْرَأُوهُ
بَعْدُ الْجَمَالِ سُمُوهُ وَالْقُبْحُ ضَلَّ شَقَاؤُهُ

(*) النَّأْيُ : البعد.

الذكاء الظالم

وقالوا فى عقوقٍ واستساغوا (ذكاءُ المرءِ محسوبٌ عليه) !!
أظنُّوا حينَ قالوا فى هدوءٍ لبيباً يرتضى جوراً لديه؟
ينكب عنه ما جلبت شرورٌ ويدفعُ سوء ما يجرى إليه
فإمّا باء بالخذلانِ محضاً أو الحقَّ المضائع فى يديه
أ تلك القسمة الضيزى قضاءً سوى أم مثيرٌ غضبته
كأن العيش لا يعطى حقوقاً فنوعاً لم يحملق نظرتيه

حذار..

احذر الشرَّ ما بدا إلحاحه واحتسمه إن الضلال كفاحه
ليس أولى بالحسم مثل عدو لا يبالى بأى نصر سلاحه
أو جدير بالاجتثاث كخصم للغلاب الشريف يأبى نجاحه
سبل الشر ما بحثت طوال مبهمات السعى الخبيث مباحه
فى اسم هذا الضلال كل دليل عن شعاب يضل فيها جماعه

الشيخوخة

برزخ بين حياة وممات فيه من كل رؤوم وسمات
بين ضعف وقوى حقهما قاصر اليأس وحلوا الأمنيات
قرب الشيخ إلى حيث أى عالم قد أدرجته الظلمات
كل أسباب الحياة اجتمعت غير نذر لتولى هاربات



ليس يهوى من شاهقه نحو وادى الموت إلا دركات
ليحول الحب يأساً من طلاب ويحول الشوق عجزاً من ثبات
ونذير الضعف يبدو كلما قرب المرء ويبدأ للفوات (*)

(*) الوئيد البطيء، والفوات الموت.

نور الحقيقة

أيها النور أنت تلقى وضوحاً لأناس عاشوا بأبشع سرٍ
لا يطيقون في الحقيقة عيشاً فضياء الحقيقة الغمر يزرى
حشرات في نورها الحق تفتنى مثل قتل الشعاع كل مضرٍ
ولهذا الظلام خير من النور إذا كنت لا ترى وجهه حرٍ

جهالة...؟

أنت يا كَوْنٌ بالغموضِ مَحُوطٌ في جميعِ الأنحاءِ أسدافُ غَيْبِ
سرمديُّ النقابِ لا كُنْهَ بادٍ من طواياك للوضوحِ مُلبِّي
أينَ علمُ الإنسانِ لم يَجْزِ الأَر ضَ قُصُوراً بل في عناءِ المُكَبِّ
تلكُمُ الذرةُ الضئيلةُ في الكو نِ فسبحاً نوراً بأعماءِ لُجْبِ
خَفِيَ الأَمْسُ أَمْسُ بَدْءٍ وجودِ مُخْرَسِ السِّرِّ شاملِ الصمْتِ صُغْبِ
والغدُ المنتحى قَصِيٌّ انتهاءً للختامِ المرقوبِ في كلِّ حُجْبِ

الفضيلة والدين

لم يكُ الدينُ عصْمَتِي في عُرُوفِي عن حَقِيرٍ منَ الأُمُورِ مُعَافٍ
إِنَّ دَاعِيَ لِفَسْضَائِلِ نَفْسٍ هو فِيهَا الطَّلَابُ حَتَّى تُوَافِي
ليسَ إِحْصَاؤُهُ الكَمَالَ بِعِلْمٍ لَجَهْلٍ بِهِ يُرِيدُ الشَّافِي
هِيَ نَفْسِي الحَادِي الذِي أَرْتَضِيهِ وَبِنَفْسِي الوَرْدُ الجَمِيلُ الصَافِي

المجرم الأول

عُثِرَتْ إِحْدَى بَعَثَاتِ التَّنْقِيبِ فِي كَهْفٍ مِنْ آثَارِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ الْقَدِيمِ عَلَى جُثَّةٍ
غُرَسَ فِي عُنُقِهَا فَأُسُّ لِرَجُلٍ قُتِلَ غِيلَةً وَهُوَ مَتَمَدِّدٌ فِي أَمْنِ النَّيَامِ .

لَكَ سُوءُ الْبَدْءِ الْأَثِيمِ إِذَا مَا دَنَسَ الْأَرْضَ فَيُضُّ هَذِي الشَّرُورِ
يَا سُرُورَ الشَّيْطَانِ أَوَّلُ غُرْسٍ قَدْ جَنَاهُ خَيْرُ الْجَنَى الْمَنْظُورِ



وافتتحت الصَّراعَ والليلُ درْعُ
فسننت الجورَ (*) الخبيث جباناً
هُزِمَ الخَيْرُ أَوَّلَ الْأَمْرِ لَكِنْ
أَيُّ خَبَثٍ إِذِ الْإِمَامُ ذَبِيحٌ
عنصر الشرِّ أَنْتَ جِدُّ قَدِيرٍ
وَأَفَقَ الْأَمْسِ يَوْمُهُ فِي زُرَى
مَظْلَمُ النَّفْسِ فِي الدَّجَى كَالْقَرِيرِ
لَيْتَ مِنْهُ شَرًّا أَتَى فِي سُفُورِ
هُوَ نَصْرُ الشَّرُورِ جِدُّ حَقِيرِ
هَزَمَتْهُ غَوَائِلُ الشَّرِيرِ
فِي قَدِيمٍ أَوْ فِي جَدِيدِ الْعَصُورِ
مِنْ خِلَالِ الْوَرَى بَلَى نَضِيرِ

(*) الجور: الظلم.

الروح المعنوى

ذاك جسمى - مادام - للروح يعنو
هو ملك فى عالم ليس يعصى
وقوى الروح فى أطراد نماء
ليس يعصى فيما إليه يشاء
(فإذا حلت الهداية روحاً
نشطت للعبادة الأعضاء)
سامها الأمر فهي طوع لديه
وتمشى إلى الوضوح الخفاء
وإذا الروح شاقه نيل أمر
فتأبى، فلن يدوم الإباء
هو بين الضلوع خاف كظيم
سوف تبدو من حره سعداء

موت الأطفال

سواءً أخفيت أم وضحتُ حكمةُ الإرادة في إيجاد طفل تعذبه ثم تهلكه، فمما لا ريب فيه أن هذا الكائن ضحية وأنه روحٌ طرقَ عالمَ الحياة الحسيّة عابراً، والقصيدة مقولة في طفلة متوفاة.

يا بنى الموت الألى عِشْنْ له	فانقضى عمرٌ وعى الدنيا سُدَى
وانطوى لم يَدْرِ إلا عابراً	هذه الدنيا كأنَّ ما وُجِدَا
قد ذهبتم في ضحايا حكمةٍ	ليت شعري هل ذهبتم سُعْدَا
يا فتاتي حلوا أطيافك يأتى	كما قد حَفَّه صفو النَّدَى
ضاحكاتُ اللهو يَهْزِمْنَ النُّهى	فى اكتئابٍ منه فى النفسِ صَدَى



عُدْتُ من حيثُ أتيتُ طفلةً	وطُنُ الأبرار يلقاك غداً
أو هل يحسب فى هذى الحياة	روحٌ صدقٍ لم يدنس جَسداً

الذكريات

ذكرياتى كلما أسترجمها	باعثُ الأحياءِ فى الماضى الدفينُ
استرقتُ السمعَ كى أبصرها	كرّةً أخرى وموفور الحنينُ
هى سَوْرَاتُ شعورى دافقا	فى وميضٍ من وضوحِ المستبينُ
هى صوتُ الأمسِ لم يخرس صدا	ه شغلُ اليومِ ولا عذبُ الفتونُ
لا . ولا النسيانُ ألقى حُجبهُ	فخفاها فى مغاليقِ الدّجُونِ(*)



ذلك الماضى الذى لن يرجعَا	أنا أحيا فيه حيناً بعد حينُ
ينجلي الإبهامُ عن صفحته	فيعودُ الأمسُ ألاقَ الجبينُ
وإذا اليومُ أضاءتْ شمسُهُ	شمسُ أيامٍ غدتْ فى الغابرينُ



ويدور الكونُ فى رحلتِهِ	دورةً للخلفِ فى وهمِ الظُّنونُ
فأرى الآمالَ فى مَصْرَعِهَا	وأرى الآمالَ فى النصرِ المتينُ

(*) الدجون : الظلام والسواد .

وأذوق الأرى والشرى معا (*) كخيالات خفت ثم تبين



هي إن سعاداً ففي تذكارها خير إسعادٍ لمهزوم الشجون
أو شقاءً كان إحساساً بها خير شكرٍ لغد الأملس الحزين

(*) الأرى والشرى يعنى العسل والحنظل كناية عن السعادة والشقاء أو الخير والشر .

صمت الريف الهامد

تلك المسارب شتّى في طرائقها لتثقل النفس أغلالاً وآصاراً
قد كنتُ أحسبُه إنصاتَ مدّكرٍ في الفكرِ يسبحُ أنجاداً وأغواراً
فطالتُ الفكرَ اللائى تُساوره وصرتُ أوقظُه ما ألتُ (*) إنذاراً
فليس ثَمَّتْ إلا الصمّتُ متصلاً ! وما استحال حراً كما يغتلى ناراً !!
فسامنى المللُ المكروهُ لافحةً وزادنى السأمُ الملعونُ أحجاراً
ما يفعلُ الصلْدُ والأمواجُ تقذفه وتَنشئني عنه كالرجلانِ إدباراً...؟

(*) لا يَألو فلان كذا أى لا يدخر جهداً.

بهجة الحياة

يا بهجةً خلّبتني كم يُراودني
من كلِّ ما زُخِرَتْ للعَيْنِ آيته
مستعذبُ الشوقِ كالْبشرى يهلُّ وفي
وفي جمالِ محياهُ ذكا قيسُ
أحبُّ هذى الدنا باللبِّ آخذةً
كسَا الرضا كلَّ شيءٍ بهجةً عجباً
للّهوكِ العذبِ تزيينٌ وإغراءُ
وخامرَ النفسَ فيضٌ منه وضاءُ
جوانبِ الصدرِ ترحيبٌ وإصغاءُ
بين الجوانحِ تذكو منه سيماءُ
حُسناً تصرفُهُ في القلبِ صهباءُ
واستلهمتهُ طلابُ الشوقِ سراءُ

الألم الضال في مرض الطفولة

أول ما تدرين من أكرارها ؟!!
تأوهت يا أختي الصغيرة آهة
فرعت إذ الداء الأليم توحشت
وفجعت في نفس برىء مراحها
فألمس دنيا عالم الطهر مرسلا
أنينك يا أختي الصغيرة مقبضى
علقت بصدر الأم تبغين نجوة
تحركت في المهد الصغير كأنما
بكيت عميق الحزن جد موجع

وأول ما تلقين من أوضارها
ألا إن من صدري توقد نارها
مخالبه تجتث نضر افترارها
تداعبنى إن تدن أو فى ازوارها
سجية أبرار زكت لم تدارها
أنين كهول فى تدانى سرارها
وليس سوى وجد حوى الصدر كارها
تذودين سوءى من جحيم ديارها
وبت كئيب النفس نائى اضطبارها

سقطت ولما تنضج

العبثُ الموفور في هزلها حوى الهدوء وحوى الفضيله
تخطمت كئوس صافي الضياء فرقة (*) الأعين حسرى كليله
كلا كما طريد زاكى النماء وعذب هذى الحياة الجميله
لم يسعدا بعد بالنضوج بل ماتت الرنة الضئيله

(*) فرقة الأعين من الفرق بفتح الفاء والراء يعنى الخوف والفزع.

الشيخ الباكي

محتُ عبراتُ الشيخ كلَّ الذي رأتُ
فتلك تجاعيدُ الإياس التي بدتُ
يُخطُّ مَسِيلُ الدمعِ فيها جوانحاً
ألا ليتَ هذا الشيخَ لم يبكِ إنني
حصادُ سنينِ قَوَّضَتْ جُلَّ عمره
أراهُ وقد حانتَ لتمزيقِ عمره
أهابَ به عجزٌ فلمْ يستطعْ ونى
وحالتُ حياةُ النورِ في نفسه دُجى
عيونُ الصِّبَا البسَّامِ في الأعْصُرِ الغبرِ
تُكَلِّلُ خَدَيْهِ اندحاراً على دَحَرِ
تُذْبَذِبُ فيها اليأسُ في الألمِ المرِّ
أحسُّ لهيباً في فؤادى من النُّكْرِ
شقاءٌ مُعْنَى أعقب الوصلَ بالهجرِ
قواطعُ تَدْنِيهِ سريعا من القبرِ
كغيرِ رضوخِ الضَّعْفِ نأياً عن النصرِ
يُزَهِّدُهُ فيها زهادةٌ مضطَّرٌّ (*)

(*) معانى الكلمات : الغبر مفردُها أغبر . والشئ الأغبر هو الملطخ بالغبار . والأعصر الغبر يعنى الأزمنة الكسيفة الرديئة . الإياس هو اليأس ، قَوَّضَ يعنى هدم . معنى بتشديد النون من العناء وهو الإعياء والتعب . الونى نفس المعنى السابق .

الأعمى

غاض الضياء الذى تبدو برونقه طوارئ الروح من نائى مخابيه
فالجسم سجنٌ شنيعٌ الضيق مضطربٌ وراءه الروح فى أسمى أمانيه
فعالمٌ وحده تلقاه معتزلاً مباهج الكون أو عالى معانيه
وعالمٌ وحده بالبعد معتصمٌ إذ ليس يستطيع قرباً فى تدانيه
لا يدرك الناس إلا من نفوسهم لا اللون يخدع من كذب أحاجيه

طريد

تَقْسَمُهُ الْإِجْهَادُ فَهُوَ مَثْقَلٌ يَنْوَى بِأَعْبَاءِ الْمَعَايِشِ مُتَعَبَا
مَدَى الْعَمْرِ لَا يُلْقَى سِلَاحًا بِكَفِّهِ فَطَوْرًا أَخَا حَرْبٍ وَطَوْرًا تَاهِبَا
يَظُلُّ بِحُومَاتِ الْجِهَادِ مَكَافِحًا فَسَيَّانَ فِي أَيَّامِهِ الشَّيْبُ وَالصَّبَا
طَرِيدٌ مِنَ الْإِسْعَادِ فَالْدَهْرُ خَلْفَهُ دَعْوَبٌ وَلَنْ يَأْلُو هَوَى الْعَيْشِ مَأْرِبَا
كَأَنَّ مِنَ الْكَوْنِ الْمُدَارُ حِسْرَا كَهُ فَلَيْسَ بِوَقَافٍ وَلَيْسَ مَغْلَبَا
أَلْدَانُ مَوْصُولَا الْغَلَابِ فَحَيْثَمَا تَرَى غَالِبَا فَالْغَلَابُ قَدْ نَالَ غَاصِبَا
فَبُورِكَتْ مِنْ عُمْرٍ تَضَاعَفَ سَعْيُهُ وَبُورِكَتْ مِنْ فُلْدٍ وَبُورِكَتْ يَا أَبَا(*)

(*) معانى الكلمات : ينوئ بأعباء المعاش أى ينهض بأعباء الحياة بجهد ومشقة . حومات مفردا حومة
وهى أشد موضع فى خدمات القتال لأن الأقران يحومون حوله . ألدان مشى ألد وهو الشديد
الخصومة .

القارة المبهمة - من قبل ومن بعد

ظلت قروناً لم تطأها من قدم
رهيبة البلقع تنأى وحشة
في عزلة عن عالم مصطخب
إن تشرق الشمس في حضارة
حضارة الوحوش إن خيفت ففي
لا بل عهد ليس صدق مثلها
فالرق والظلم اعتدال عندما
والصنم المعبود خير شرعة
يا ليت كسفاً من ظلام حفاها
عصية الأسرار عمياء الظلم
وتذخر الأغوار سحراً والأكم
بالإثم يزجي في غمار المزدحم
أنار فيها الطبع كل مكتوم
إعلانها الشر نذير وذمم!
إن نكت العهد بنو الغرب البهم
أذكر عدل الغرب فيما يلتهم
من شرعة الغرب اللئيم المحترم
قد قذف السروات في شر الغيم



لقدس الغاب سمّت أغصانه تستلهم الرفعة من حرّ الشَّمم^(*)
وقدس الغاب ترى فيه إلى إيراقيه اليانع تجعيد القدم

(*) الدم بفتح الحين الضعف والهزال . البهم المظلم . المحترم المحرم المذنب السروات هم أصحاب المروءات من الرجال وقد تكون أشجار السرو لارتفاع قاماتها وشموخها . الشَّمم الإباء والأنفة .

كم من وحوش آبدات تتقي
ومن طيور آمات صدحت
وجلّت القفار عفراء الثرى
يضلّ في روعتها الفكر وفي
وجلّت القفار ترمى باللظى
حتى إذا الليل ارتخت أسداله
فياض شرّ الناس في هذا الأجم
تهتف بالألحان سلسال النعم
برأفة الآل الخلوب المتهم
فجأجها الفيح ترى الغيب ادلهم
تسعف أظلاف المها من الضرم
فتعصف الريح صقيعا ونقم



واستوطن الأهلون ميمون الحمى
فاض عليهم خير ما يجمع من
حتى إذا فتحتم الغرب لها
فكظت الوهاد من غار ومن
ليعمر اليباب، ضلّ المعتدى
ليئد الأحرار جاء المعتدى
لا يعرفون السوء من نابى الشيم
سذاجة بريئة عن التهم
وعرا من الأخطار يحدوه النهم
عاف يريد الوفّر وثاب الهمم
قولة زور لا يزكيها قسم!!
ينتهبك الأوطان يرتاض الأمم!



راعت جلال الغاب حرب أسعرت
وبدلت قدس الموانى سطوة
يا حسرتا حاقت بهن لعنة
وانتهى الماضى الذى لن يلتئم^(١)
الصادحات الغر من هول تجم
سطوة الشر على الطهر الهرم!

(١) الآل الخلوب يعنى السراب الخادع. المها مفردا مهاة وهى الظبية الجميلة. الصرم اللهب. نابى الشيم يعنى العادات النابية أى القبيحة. كظت الوهاد يعنى امتلأت بالسيل. تجم مضارع وجم أى يصاب بالوجوم وهو السكوت والعجز عن الكلام.

طفلة فقيرة...؟

سَأَلَتْهُ قُطْعَةً	سُؤْلَ وَلَهَى وَامَقَهُ
لَمْ يَجِبْهَا فَأَجَالَتْ	نَظَرَاتِ حَانَقَهُ
وَرَنُوْ مُسْتَفِيزِ الرِّ	غَبَاتِ الصَادِقَهُ
هِيَ تَبْغِيهِ حَنَانَا	يَسْتَفِيزُ دَانَقَهُ
وَهِيَ لَا تَدْرِي سَوَى	مَا تَحِبُّ عَالَقَهُ
وَهُوَ عَافٍ مُفْتَرٌّ	نَاءِ نَفْسَا زَائِقَهُ



صَاغَ مِنْ فِيهِ ابْتِسَامَا	كِي يَرُدُّ الْمَارِقَهُ!
مَرَقَتْ عَنْ سِنَةِ الْفَقْرِ	رَفَكَانَتْ صَاعِقَهُ!
هِيَ بِسَمِّ بُوْسٍ	كُلُّ عَطْفٍ رَافِقَهُ



أى جدوى لابتسام
فـتـلـوت فى يديه
زفـراتٍ أرسلتـها
ليس حلوى شائقه؟
وبكتـه شاهقه
للفؤاد مازقه



لم يُجبـها ومضى
ملكـت مـقـوده
قدراً أبأسـه
طالما شـاءت وكم
فاسـتـراضت وعنت
ثم حـالت نظرتـها
فى هموم سائقه
ملكتـه ماحقه
ودّ لو قد فارقـه
حرمتـه فارقـه
إذ يرفض - واثقـه
بالسؤال ناطقـه(*)

(*) معانى الكلمات : وامقة من ومق أى أحب . العافى الفقير المقتر . للفؤاد مازقة أى مزقت فؤاده .
حالت نظرتها أى ذبلت .

مدحة فى صنيع

إذا كان حسنُ الشعر مِينًا مزخرفًا فلا كان شعرٌ نكَبُ الصدقِ قائلُهُ !
لَمَحَتْ اتساقًا بين كلِّ محبِّبٍ وبينك فى قلبٍ هو الطهرُ آهلُهُ
صنيعٌ كعمقِ الخيرِ فيك قبولُهُ ومن روحك الزاكى ثوى فى نائلِهِ
توسمتُ إخلاصًا يحفُّ جلالُهُ وبهجة جوادٍ نفى الزيفَ سائلُهُ



أفاضتُ شعورى الجزلَ أيةَ منَّةٍ نصرتُ بها والرَّبعُ عريانُ ماحِلُهُ
فكنتُ كزهرِ القفرِ أظهرَ طيبُهُ من الشوكِ مؤذى اللّمسِ تذو قِواتِلُهُ !!
فأىُّ جميلٍ كبّلتنى قيوده؟ وأىُّ شكورٍ، إننى الآنَ فاعِلُهُ (*)

(*) المين الزور والكذب . كبّلتنى قيوده أى قيدتنى .

صورة...

معالمُ الروح خذها من ملامحها واستوِّح من ذكر الماضي أمانينا
فإنَّ تطرَّق نسيانٌ ليطويها تستوقفُ النسيَّ أن يطغى فيبقينا!

النور الغريق!

رعدةً تكرءُ ضعف الـ يأس أن يقـتـدرا
هى مـعنى ليس يدري فى الحـياة الخـورا
رعدةً النور غريقاً فى المـياه انغمـرا
فالتـماع الموج يبدى لمعةً تذره بشـرا...!!!



خلتـه لمـح سـراب يسـتـخفـ النظر
خدعةً المظهر يزهر فى هـباء مـخبـرا
أو أمـانى خـلت فى الحـياة المـظـهـرا
لـوحت برقـاً كـذوباً لحـزين كى يسـرا



لا تعـالت، كم بهـاء صـير الأوهام صـفـرا
إن حـسناً فاض فيها زادها بـعداً ونـكـرا

إنها لمعاتُ حُسْنِ السِّدِّ لسبيلِ المرحه
مَسْبَحُ الخُورِ وهذى خفقاتُ الأجنحه
ذوبها الفضى دنيَا بالأمانى فرحه
فى نطاقٍ عاكساتُ للشعاع منحه
ومرايا صُقلتُ فأفاضت وضححه
وبريقٍ مسـتـطارُ ما أحلى سبـحه
ففيه لَحْنٌ من نعيمٍ فى خفوتِ صدحه

الحصاد

لليوم ما غرسوا قَدَمًا وما اجتهدوا ! وبورك الغرسُ في أعقابِهِ حصدُوا
وبُورك الزَّهْرُ لم يكذبْ وقد بسمتْ تُرجى الأمانى نُورًا سَوْفَهُ النَّضْدُ
هذا جنى البَدْءِ فى داني سنابله للنصرِ ما عملُوا والصدقِ ما وعدوا
هما الغذاءانِ من رُوحٍ ومن جسدٍ نعم الغذاءانِ يلقى الروحُ والجسدُ
الماءُ والنورُ والفلاحُ قد صنعوا عقداً من الثمرِ المنظومِ يَطْرِدُ؟
قد أبرزوه كئوساً بالجنى حَفَلْتُ ونمقوه جلالاً حيثما احتشدوا
واتت عطاءً جزيلاً كلما ارتقبوا !! ثمارها الجودُ فى كلِّ الذى وَجَدُوا(*)

(*) السوق مفردها ساق وهو ساق النبات أو الشجر . حفلت بالجنى يعنى امتلأت .

«الفجر»

ما ذوب الغياها؟ وغرب الكواكبا؟
وشيب الذوائبا؟ فكاد يخفى هاربا

صمت الظلام المطبق؟!

لمح ضياء قاربا مراكبا مراكبا
بالنور يرمى دائبا يدرجها السبا سبا

ظلم الدجى المتسق

ما أخرج الجنادبا قضته ليلاً صاحبا
وبالصرير جاوبا دياجياً ساواكبا!!

صرير صمت ريق؟!

نحن صده جانا با إذ ظن لمحا رائبا
فى الأفق يعلو غالبا معصفراً وخاضبا

ففر من ذا الفلق!!

أَحْيَا الْحَرَكَ الذَّاهِبَا فِي اللَّيْلِ كَانَ غَارِبَا^(*)
لِلنُّورِ يَدُو صَاحِبَا هَا هُوَ ذَا مُخَاطِبَا
لِلَّيْلِ أَنْ أَنْطَلِقَ

(*) الغياهب هي الظلمات . السباسب مفردها سبب وهي المفازة أى الصحراء الخطرة . الجنادب مفردها جندب وهو نوع من الجراد . الدياجي الليالي المظلمة .

الشروق فى القبور

عَصْفَرُ الشَّرْقِ ضِيَاءٌ أَبْلَجُ وَمَحَا سَطَرَ الدِّيَاجِي السَّائِدَه
كُلُّ وَسْنَانٍ نَوْمٍ هَاجَهُ لَهَبُ الْأَضْوَاءِ شَبَّتْ صَاعِدَه



ظِلْمَاتُ اللَّيْلِ حَالَتْ مُزَقًّا دَامِيَاتٍ لَيْسَ مِنْهَا ضَامِدَه !
وَرَفِيفُ السُّوقِ مِنْ هَدَأَتْهَا نَفَخَتْ فِيهَا الرِّيحُ الرَّاكِدَه
تَرْسُلُ الْأَوْرَاقُ هَمْسًا سَرَّهَا وَذُؤْبَاتُ الْغُصُونِ الْجَامِدَه



وَسَكُونُ الْمَوْتِ قَدْ رَانَ عَلَى نَسِمَاتٍ هَاجِعَاتٍ هَامِدَه !
لَاغِبَاتٍ ضَمِنَتْهَا ضَجْعَةٌ تَجْمَعُ الْأَنْفُسَ حَيْرَى شَارِدَه
مَزَقَ النَّأْيُ الْمَعْنَى شَمْلَهَا تَحْتَ صَفَاحِ رَاسِخَاتٍ سَاجِدَه
سَاهِمَاتٍ قُيِّدَتْ مَرْغَمَةٌ؟ فَاسْتَكَانَتْ فِي ثَرَاهَا سَاهِدَه



من جمال الشرق صيغتُ بسمَةً من جلال القدرِ تبدو راعدهُ



فماضت الأنداءُ من نورِ الربِّي	تنتشي منها القلوبُ الموصدهُ
وشدا الطيرُ أهازيحَ المنى	رائع الأصداءِ حُلُو الأنشدهُ
وعلى القبرِ سكونٌ أخرسُ	قد أبان الموتُ منه موعدهُ
صمتهُ لليأسِ فيها ثورةُ	ولهيبُ اليأسِ نارُ مخمدهُ



مولدٌ للنورِ وهَّاجَ السنا	يرسلُ الأحياءَ لا متئدهُ
وانتهاءٌ مقفرٌ مضطربُ!	يجعلُ الأكوانَ تمشي مُقعدهُ!



بشعُ (*) الموتِ إسارا تنطوى	ففيه أرواحُ الأناسِ نكدهُ
بشعُ الموتِ ظلاماً قاسياً	تفزعُ النفسَ ونجوى الأفئدهُ
بشعُ الموتِ حجاباً قائماً	تختفي الدنيا به مُرتعدهُ
بشعُ الموتِ ولو أنى إلى	وردهُ الأنكدُ نفسى موردهُ!

(*) بشع الموت صار بشعا ويمكن أن تكون بمعنى ما أبشع.

الشمس

من سناك الوهاج ضاءت حياتي فمضى يبسمُ الطَّمَاحُ المواتي
وأثرت السَّمَوُ في كل نفسٍ والوضوح البعيد عن شبهات
فانتشى الشعاعُ صحوا منيرا ليس أحلى منه في اللذات
أشرقى في الوجود طهراً وضيئاً وأنيرى السبيل من ظلمات
وأمتى اليأس المعبذب موتاً بدليته تيقظاً من سبات^(*)
في انبثاق الإسفار حُرّاً تعالى شيقاً للمحبّ عذب السّمات
وانسياب الإشراق يقطر نوراً وبهاء قد جلل الضحوات
وابعثيه إلى الحياة طروباً يرتوى من نطافك الألقات^(**)
فإذا علّ من وميض الظهيرات حرّورا يؤجج العزّمات
يستحث الحياة برّح كفاح وانطلاقاً مشوق الوثبات
الوداع الميمون يبدو أصيلاً مائج النور في سنا أمنيّاتي
في نضارٍ من الأشعة سكرى بحبور يحيى رفات الموات
خير ماضٍ يحفّه خير آتى يتهادى في ذلك الميقات

(*) السبات : أول النوم .
(**) الألقات : يعنى اللامعات .

ليلات آملة!

يا ليلُ كم أجذل (*) من ظلمتك
يستيقظُ الحنينُ شغوفاً بما
فيرجعُ الرائدُ من جولته
الوعر ! إلا في فؤادي يرى
فتلك أخطارُ الدجى طارقة
في هدأةِ الوائق من هدأتك !
يا ليلُ يا مضجع هذا الورى
فتألقُ الآمالُ فى بهجتها
وتلكمُ الأسدافُ فى أثنائها
ويمأُ النفسُ صدى روعتك
يقرؤه للغيب فى صفحتك
لم يلق غير الوعر فى بهمتك (**)
شر حياة ما خلت من رهبتك
يدحرها عزمٌ نما فى سطوتك
وقوة الغاشم من قوتك !
يحلولى التفكير فى صمتك
والساحر الناصع من نجمتك
غيب يشوق فى كحيل ظلمتك

(*) كم أجذل يعنى كم أفرح .

(**) بهمتك من البهمة وهى شدة الظلام .

ليلات جادة

حَبِيتَ لِي يَا لَيْلُ فِي أَنْفِرَادِكَا تَضْطَرُّمُ الْأَسْرَارُ فِي فُؤَادِكَا
وَتَعْمُقُ الْحَيَاةُ مِنْ غَمْرِ طَمَا يَكْتَسِحُ الْأَرْجَاءُ مِنْ ظَلَامِكَا
إِخَالُ فِي دُجَاكَ إِزْرَاءُ نَهَى بَعَالِمِ تَهْجُوكِ فِي اعْتِزَالِكَا
فَأَنْتَ عَنْهُ مُبْعَدٌ مُبَايِنٌ حَقَرْتَ ذَا الشَّيْطَانِ - فِي جَلَالِكَا
غَمَرْتَنِي يَا لَيْلُ مِنْ قَسَاوَةِ قَطُوبِ جَدِّ قَدْ قَسَا مِنْ ذَلِكَا
يَنْهَمُرُ الْإِيْحَاءُ مِنْ عَوَالِمِ رَأَتْ دُرُوبَ مَتْنِهِ مَسَالِكَا
فَثَمَ فِي كُلِّ الرَّحَابِ مَهْبَطٌ لِلْوَحْيِ زَخَارًا يُرَى هُنَالِكَا
إِنْ أَعْوَزَ الْمَدْلَجُ^(*) نُورَ حُسْبِهِ هَدَى مِنَ الْوَحْشَةِ فِي ظَلَالِكَا
فِي الْوَحْشَةِ الْمَرْنَانُ صَفْوُ الْمُنْتَقَى تَنَأَى عَنِ الْأَكْسَادِ فِي نَقَائِكَا
لَا يَجْتَوِيهَا^(**) سَارِ اغْتَرَبَ الْوَرَى فِي حُسْبِهِ فَارْتَدَّ بِهِزًا ضَاكِا
بَادَلْتَنِي الصَّفَفُ بِأَذَانٍ وَعَتَ سَرَائِرًا تَعِيشُ فِي شَعَارِكَا
بَادَلْتَنِي الشَّدْوُ أَغَانِي سَمَتَ تَخْتَرِقُ الْآفَاقَ مِنْ أَحْيَائِكَا

(*) المدلج الذي يسير الليل كله .

(**) يجتوى يتشعر بشدة الوجد .

النجوم

لآلئ الليل في ديجوره الطامى كجوهر - قذف الأصداف - بسام
مبعثرات إلى الآفاق في عجب تفوق بعشرة تنسيق نظام
طرائق النور تزجى الهدى وسوسة رصينة كالسكون الهادئ النامى
تلك المصابيح حيرى في توهجها ! فى أى ناحية تزجى السنا السامى !
تكاثرت ظلمات الليل فالتهمت لا تعرف اليأس فى تشتت إبهام
كأنها إذ تغالى فى مخاوفها ما ترسل الملح إلا محض إعلام ؟
منائر الفكر الرضاحة اتقدت فى نفس قاسية تأبى لإلهام

البدر

ما أجمل الحياة! هادئة الأمانى

تنيرها يا بدرُ

وأعذب الشعاعا من عالم الرضوان

ترسله يفتتِر!

فى مُسعد الأحلام ونجوة الأمانى

يقنوه ضوءٌ طهرُ

قد أضفت الأضواء فى الأفق المزدان

جمله البشر!

يشير فى الحياة عالمك الثانى

وداعية يا بدرُ

حنين إلى الطبيعة

تلك المروج - بهيجة - يهتز في
ويموج في سيقانها متأوبا
خضراء يانعة كميسور المنى
أُمى الطبيعة ما أجل معانيا
أُمى الطبيعة كلما زدنا نوى
في صنعاها الفنان كل سداجة
إيناعها سحر الحياة الخالد
نغم الطلاقة والرفيف الناشد
صفراء يابسة جناها الحاصد
يرنوا إلى أصدائهن الواجد^(١)
عنها فكل مزيف يتزايد
هي في ذرا التنسيق قصد واحد



تتساقط الحجب التي تطوينني
أُمى الطبيعة كم أحن إذا سعت
نهلت من النور البهي فقسمت
ما ثم إلا النور يلقي غارس
في شر ما ألقى . فهن مصائد
قدماى في ضاحى حماك أشاهد
أطياف ألوان - تلوح - فرائد
ما ثم إلا النور يلقي رائد

(١) لواحد من الوجوه وله سبعان كثيره و... معنى الحزين

عودة الأمس

أيها الشرق... أنت جدٌ غريبٌ
تُنكرُ العينُ أى أنقاض (**)
حُقرَ الرسمُ، ليس معلّم صدقٍ
قد حواك البلا الزرى (***) وأوهى
أيها الشرقُ قد غفوت طويلاً
إنَّ سَحْراً تزهو به جنباتٌ
ارتضتكَ السماءُ مهبط - وحي
فإذا الصفحةُ الربيعُ محوّلٌ،
يا حفيد العتيق من كلِّ مجدٍ
ضجّت الأرض من حضارةٍ سوءٍ
هل أرى الثورة العظيمة فيضاً؟

عن جلال عفى (١) وأمس عظيم
قد تبقت من البناء الفخيم
فى ثراه إلى الحقيقة يَوْمى
صلة الغرب بالجمال القديم
وقماديت غافل التهويم
منك يذروه رائع التـحـطيم
حقب الطهر فى ديار النعيم
ومحت نورها رياح سُموم
أين فى الابن مجدٌ أكرم خيم (***)!
قد غلا شرّها وغرب أثيم
جارف السيل فى اكتساح التخوم

(*) عفى: أى ملئ بالعافية.

(**) الأنقاض: بقايا الهدم.

(***) الررى: الذميم المختقر.

(****) الخيم بكسر الخاء الطبيعة والسجية.

مغرب النبل في حضارة شر! كل ما شان (*) من طباع اللثيم
أين من ذاك للفضيلة شرق؟ لا كدنيا الآلات صرعى جحيم!
أيها الشرق هل أراك عزيزاً في انتصار على الألد الخصيم

(*) ما شان : من الشين . يسكون الياء وهو العيب .

إلى الأمة الكريمة

مستمرى الذل ! هل تدرون ما كانا ؟
أكثرتم اللغو حتى جاء آجلكم
أين الشاعر ولهى (١) تغتلى حرحا
بل أين مصر تريد النصر غايتها
يا ضيعة الأمس كم ذا سَغْتُمُو جُرعا
دم الضحايا أكان الماء منسكبا
دم العزيز لمصر جد مرتخص
« يا ليت لى بكم قوما إذا ركبوا
يا للضعيف إذا سيم الحياة لقى
أتى لأهتف من قلبى ألافئة
وفية السر للمجد الذى محقت
مستمرئى الهون قد طال الهوان فهل

أخزاكم الله ما تأتون بهتانا
يبدى سريرة هذا الجبن إعلانا
فترسل السيل تلو السيل غضباننا !
أو إن مصر على الأيام ميدانا ؟
تشير ذكرا يعير البأس من هانا
مستمرئى الهون (٢) فى واديه ازدانا
لو خلف التعب المحزون شجعانا
شدوا الإغارة فرسانا وركباننا
ولم يجد من وراء النصر نشدانا
للنيل ما نكثته العهد خذلانا !
حضارة الهدم إفناء ونكرانا
يلقى حديث عن الإعزاز نسيانا ؟

(١) المولود شدة الحزن ومنه امرأة الترهى .

(٢) الهون هو الحيوان والدلة .

دعوت للشورة الكبرى توج^(١) دما
دعوت للشورة الكبرى إلى غرض
سكت محتبس الصيحات في غضب
يأبى الحديد ويأبى النار شطآنا
ينفى السكون إذا ما سيم إذعانا
لما رأيتم للذل أخـدانا

(١) ج يوج أحجا اضطرم والتهب .

نحن ؟

غَيْرُ أَهْلِ لِسَمَاءٍ صَافِيَةٍ أَتَرَعْتَ زَهْوَ الْكُئُوسِ الزَاهِيَةِ
لَا غَيُومٌ تَكْشِفُ الْإِشْرَاقَ فِي جَنَبَاتٍ مِنْ سَنَاهَا ضَاحِيَةٍ
حَوِّمَتْ فِيهَا طَيُورٌ سَخِرَتْ بِالْحَمَى الْمَذْلُولِ فَهِيَ دَاوِيَةٌ (١)
جَدَّتِ الْأَرْعَادُ إِذْ نَلْهُو وَقَدْ قِيدَتْنَا الْأَرْضُ فَهِيَ الْعَالِيَةِ
وَرَفَعْنَا الطَّرْفَ كَيْ تَرْمُقَهَا فَأَهَالَتْ نَظَرَاتِ زَارِيَةٍ (٢)



غَيْرُ أَهْلِ لِرِيَاضٍ أَيْنَعَتْ وَتَلَاقَتْ بِالثَمَارِ الدَانِيَةِ
وَتَبَدَّى نُضْرَةٌ سَنَدُسُهَا رَائِعًا يَحْكِي الْجَنَانَ الرَّابِيَةِ
سَهْلُ الْمَوْطَى مِنْ أَكْنَافِهَا فِي ظِلَالِ الذَّلِّ فَهِيَ نَامِيَةِ
هِيَ رَوْضَاتُ بَنُوهَا خَدَمٌ حِينَ هَانُوا لِلصَّدُورِ النَّازِيَةِ
لَهُمْ مِنْهَا الْحَصَادُ الْمَرْجَى وَلَنَا مِنْهَا الْجَهْدُ الدَامِيَةِ



(*) دَاوِيَةٌ مِنَ الدَّوَى .

(**) زَارِيَةٌ : مِنَ الزَّرَايَةِ وَهِيَ الْإِهْتِقَارُ .

ليت وادى النيل قاعا صفصفا ذاق أهلوه الذؤام القاضيه
فى ذلول منه سهل قد حيا ما رعوه فرعتهم داهيه
إن نكن للعرب نمنى فلقد مزق الذل الصلات الغاليه
أو نكن أبناء فرعون وهو سيد الدنيا الإله الطاغيه
فهو يابى نسبة واصمه عزه الرب وعليا نائيه
يا عيوب البلد الميمون ما نصعت فى المجد دنيا ماضيه

جيش مصر

سَرَحُوهُ إِنِّهَا مَهْزَلَةٌ أضحكت سخرية قلب الحزين
أى جيش قاده قاهره وعلته وجمات المستكين
أى جيش كان للضعف وللهم ووفما عن قدرة الجديين
تُخْذَتُ أَجْنَادُهُ فِي زِينَةٍ تنشر الذلة في الوادي المهين
جيش مصر حارس الضعف إذا ثارت النخوة بالمستضعفين
جيش مصر أترى أجناده؟ أترى العدة في تلك المئين
أترى ضباطه الْعَوْبَةَ في يد الغصب وكيد الغاصبين
لا سلاح فيه معنى بأسه أو سلاح من دعامات اليقين
فكأنه - عاطلا من جده - جد مستخذ لهون المرهقين
كفلول مُزَقَّتْ فاستسلمت من سداجات جيوش الأولين

تحية عرابى البطل

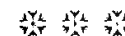
حيَّتْكَ من نفسى عواطفُ نائرٍ لا يستكينُ لسطوةٍ من جائرٍ
ويثيرُها ناراً يهولُ وقودُها فيبيدُ أو تلقاهُ أوبةً ظافرٍ
حيَّتْكَ من نفسى عواطفُ مخلصٍ لا مأربٌ يُلْهيه شأنُ الفاجرٍ
للمجد ما يبغى يكللُ أمةً للنصر ما يسعى قليلُ الناصرٍ



فى حُبِّ مصر وفى سبيلِ خلودها فى حُبِّ مصر طليقةً من أسرٍ
نفرت من الوادى الجموعُ تقودها فى وجه عاتِ ذى شكيمة قادرٍ



حيَّتْكَ نفسى بل تحيةُ أمةٍ تحبوك تمجيد الجرىء الماهرٍ
إن فاتك النصرُ الجميلُ فإنها كبواتُ جدٍ فى طريقٍ واعرٍ



إن فاتك النُّجْحُ العزیزُ فإننا نسعی نحطّم رُغم جدّ عاثر
فی ثورة کبری سنسعرها لظى یفنی أتون لهیبها المتطایر



قُدّست مهزوماً تعفّر فی الثرى قُدّست مقهوراً کسیر الناظر
قُدّست یوم بکیت إذ سقط الحمى لا نصر یرجى لا دفاع مغامر



نفثات ملّتاح الفؤاد تميزاً وأنین مکلوم الکرامة حائر
ومرارة الذکر الألیمة قد طغى طوفانها یجتثّ ضعف الخائر



غدرٌ من الغرب اللئیم سما به وإلى الحضيض هوى به فی غائر
لکأنما جیشانُ صدركَ حينما غیبت فی لجج العباب الغامر
أمواجها تهتزّ صاحبةً وفی طغیانها معنی أنین الزافر



فی الأسر یرسفُ فی قيود مهانة خیر النفوس نهى وطیب ضمائر
فی الأسر ما أعیا وقد حاطت به ظلم الغد الداجى وظلم الحاضر



حیبتک أرواحٌ تکافح لا تنی دأب الحریص على الجهاد الذاکر
أبدأ هو العمل الحثیث أثمرت أغراسه أم تلك رجعی الخاسر

إلى الحرب

قيلت في تطوع طبيب مصرى لجيش الحبشى .

إلى الحرب ترغو من جوانبها الدما وترمض صاليها كفاحاً إلى الدما
ويعصف بالموت الذؤام لهيبها بحموات نار تقذف الهول مضرماً
فإما جناها الغرب رجعى ذليلة وإما جناها الشرق صاباً وعلقماً



تطوعت تأسو من جراح أعزة أباحوا ضنى الأجسادكى يفتدوا الحمى
فواس جنود الحق ما استطعت رحمة وخفف أنين الموت إن ران مرغماً
تذكر إذ الجندى جاث مضرج تحب فقد العيش إن جاء مظلماً
فألى سيلقاها منايا مريرة ووفى فلم ينكص ولن يتجهماً



إلى الحرب واشهد صولة الغى فاتكا وأى انتصار لن يلاقى مكرماً

وراقبْ أناشيدَ الفخارِ مهينةً وكيف يريدون الحياة جهنماً
إلى الحرب يا أجنادَ حقٍّ مضيعٍ فثمَّ الفخارُ الفدَى يفترعُ السما
لنا المجدُ في النصرِ العزيزِ وإننا لنفخرُ إنْ داعى قُوانا تحطّما

أسود قصر النيل

فى ظلال ثكنات الجيش الإنجليزى^(*) أقعت أسود قصر النيل تبعث الأسى
والسخرية فى هذا التحفز الذى طال فلم تنكص ولم تهجم .

أى عارٍ يا قوم بل أى ذلٍّ حين يمسى الدخيلُ جبارَ صولهُ
أى عارٍ يحنى الرءوس خضوعاً ويعيدُ النفوس نكدًا مضلَّهُ



ربضتُ تحدُّجُ العدوِّ بحقدٍ وتذيبُ البغضاء فى شرِّ حملهِ
أم نَمَها إلى الهزيمة بأسٍ فاستلانت أجلاؤها مضمحلِّهِ
الزئيرُ الرهيبُ أين صداهُ والسلاحُ المهيبُ بالرغم ثلِّهِ
كذبونا يا شرَّ ما ساء مصرا هى بالعبءِ وحده مستقلِّهِ



(*) فى أيام الاحتلال الإنجليزى لمصر كانت ثكنات الجيش المحتل ملاصقة لكوبرى قصر النيل مكان مبنى جامعة الدول العربية وفندق النيل هيلتون حاليا وكانت - ولا تزال - تربض على مدخل الكوبرى من جانبيه تماثيل أسود أقعت على مؤخراتها مما كان يثير سخرية المواطنين .

أَشْعَارُ الْقُوى الْجَلِيلَةِ يَبْقَى تَحْتَ صَرْحِ الْإِذْلالِ حَتَّى يُظْلَهُ
حَطْمُوهُ أَوْ حَطْمُوهَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا لِقَيْتِ السَّخْرِ كُلَّهُ

ذكرى ضرب الإسكندرية

ذكرى تمر وملء النفس أشجان
تمر عابرة بالذهن في عجل
إنى أشيح فلا أسطيع تذكرة
ورب طالب ثار لا يطيق ولا
ذل يكبلنى من هوله كمد
دهى الكنانة ما قد راع عزماتها
وصار كل خئون غادر عضدا
مصر العزيزة أدناها وصفدها
كم كافحت شرة العادى قساورة
وبئست الحرب فيها الرجس منتصر
ذكرى تظل تثير الحقد مضطرمما
الثار يا فتية الوادى فما بسوى
يا مصر ما شمسك الحسناء مسفرة
حتى يزول قتام لا يزال قذى

فتحرج الصدر غمما فهو كظان
تستاق مجفوة والقلب غضبان
للحق منتهكا يقصيه عدوان
يرضى اذكار مصاب وهو حزان
فيهرب الفكر لا ينجيه سلوان
هوى بها فى حضيض الذل طغيان
للمعتدى النذل ينزو وهو جدلان
فى محكم الأسر غدار وخوان
جادوا بأنفسهم والحرب نيران
والحق مندحر يعلوه خذلان
وتوغر الصدر لا يلهيه نسيان
نصر عزيز تزيل العار أوطان
ولا نباتك حالى العود ريان
ونمحي من قيود الأسر أرسان

ابن الظلمات أو الذى يكره السياسية

قلت لى : « لست سياسياً أرى ولجأُ القوم عندى مُزدرى
كلما صاحوا به من مطلبٍ ليس يأتِيهم فغُضُّ النظرا »
هكذا تنطقُ لم تشعراً بما فى جمال السعى أو جهد السرى
ليست الأوطانُ فى شوقٍ إلى أنفسٍ أعلى مراميها الثرى
أيها المغلقُ روحاً وحجى يا أخا الثورة يا أغبى الورى

قُلْتُ لى : « استقلالُ مصرٍ لا يجى ولو ان العباء غيرُ إنجلترا »
ما لهذا اليأسِ يغزو قلبَ من لم يكافحَ مرةً مستنصراً
إنه الجبنُ وعَتَّتْهُ أنْفُسُ قد أحبَّ المرءُ أن يُستصغراً
اغترِبَ عَنَّا إلى حيثُ انتهتْ قَدَمُ الذلِّ وتمزيقُ العُرا
إنَّ مَهْدَ النُّورِ يَأبى أبداً نسبةً للندل لن يتحرراً

يا بني الظلمات لستُ مُصدقًا أنَّ مصرًا أنجبتُ محتقرا
زُمرُ الغازين أَلقتُ سوءَها في الحمى المذلول حتى استمَصرا
بذرةُ الأخلاطِ هلا عرَفَتْ شكرَ إنعامِ الذى لن يُشكرا

أمة مسروقة تحت عين الشمس (العقاد)

وداعاً حياة الخفض (*) - لا كنت - إننا
فإما يئسنا من حياة كريمة
إلى الموت لا نبغى سواه تنكباً
سويغات هذا العمر ماذا؟ أتُنقضى
إلى الموت ما فى النفس شوق لمطلب
أبى القدر القاصى لمصر رعادةً
ألا فليكن ما شاءه القدر الذى
إلى الموت أو نلقى حياة كريمة
أبيناً خضوعاً وانتهيناً إلى الإبا
فلسنا الأولى يخشون موتاً مغلباً
إلى الموت محتوم الفناء معذباً
أويقات ذل أم تُقضى مآرباً
فليست حياة الذل ترضى التطلُّباً
وشاء لها مر الكفاح وخيباً
تخيرنا للسعى والمجد والطُّباً (**)
فننعى نحب العيش ذُقناه طيباً

(*) حياة الخفض يعنى حياة الدعة والاسترخاء .

(**) الطب : مفردھا طبة وهى حد السيف .

المحتويات

الصفحة

٥	تقديم الديوان
٤٠	موضوعات شعر الشيخ الغزالي
٧٩	ديوان الشعر
٨١	الحياة الأولى أو نحو المجد
٨٣	الخمرة الإلهية (١)
٨٥	الخمرة الإلهية (٢)
٨٧	الخمرة الإلهية (٣)
٨٩	الخمرة الإلهية (٤)
٩١	عوائق
٩٣	دنيائى
٩٥	النفس والكون
٩٦	الخطيئة
٩٧	ملائك الخير
٩٨	يقظة
١٠٠	الصلاة ؟ ..
١٠١	معانى الضاحك
١٠٣	الزمن السحور
١٠٥	الحضارة الحديثة
١٠٧	الأمل
١٠٩	سرى وثرى !
١١٠	السعادة فى الطفولة
١١١	خضراء الدمن أو الجمال القبيح
١١٣	الذكاء الظالم
١١٤	حذار
١١٥	الشيخوخة
١١٦	نور الحقيقة
١١٧	جهالة ؟ ..
١١٨	الفضيلة والدين
١١٩	المجرم الأول
١٢٠	الروح المعنوى
١٢١	موت الأطفال
١٢٢	الذكريات
١٢٤	صمت الريف الهامد
١٢٥	بهجة الحياة

١٢٦ الألم الضال في مرض الطفولة
١٢٧ سقطت ولما تنضج
١٢٨ الشيخ الباكي
١٢٩ الأعمى
١٣٠ طريد
١٣١ القارة المبهمة - من قبل ومن بعد
١٣٣ طفلة فقيرة...؟
١٣٥ مدحة في صنيع
١٣٦ صورة
١٣٧ النور الغريق!
١٣٩ الحصاد
١٤٠ الفجر
١٤٢ الشروق في القبور
١٤٤ الشمس
١٤٥ ليالات آملة!
١٤٦ ليالات جادة
١٤٧ النجوم
١٤٨ البدر
١٤٩ حنين إلى الطبيعة
١٥٠ عودة الأمس
١٥٢ إلى الأمة الكريمة
١٥٤ نحن؟
١٥٦ جيش مصر
١٥٧ تحية عرابي البطل
١٥٩ إلى الحرب
١٦١ أسود قصر النيل
١٦٣ ذكرى ضرب الإسكندرية
١٦٤ ابن الظلمات أو الذي يكره السياسية
١٦٦ أمة مسروقة تحت عين شمس (العقاد)

رقم الإيداع ٩٨ / ٤٠٠٣

الترقيم الدولي 1- 0448 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨: شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٩٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



دار الشروق
www.shorouk.com